محمد على قطب

يس قلب القرآن

المختار الإسلامى
للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقى بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المختار الاسلامى

بســـم الله الرحمــن الرحيـــم

قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ لكلِّ شيْءٍ قَلْباً ، وقلْبُ القرآنِ (يسٓ) ؛ ومن قرأ (يسٓ) كَتَبَ الله له بِقراءَتها قراءَةَ القرآنِ عَشْر مرات »

– رواه الترمذى –

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله ..

نحمده تعالى ونشكره ، ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير ؛ ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا « محمداً » عبد الله ورسوله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد فى الله حق جهاده ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .

أما بعد ؛

فإن وصف رسول الله ﷺ لسورة (يسۤ) بأنها قلب القرآن قد ملك على كل مشاعرى وأحاسيسى .. وفكرى وعقلى .. وكل ذرة فى كيانى ...،

أنا أحفظها وأتلوها .. وفى أوقاتٍ ومناسبات .. وتشدنى إليها عباراتها ومعانيها وأغراضها ..!

لكنها اليوم غيرها بالأمس ..

وهكذا شأن القرآن الكريم الذى قال فيه رسول الله ﷺ بأنه لا يخلق على كثرة الرد ، فكلما قرأته أو أمعنت فيه وتمعنت .. تبدت لك آفاق جديدة ومعان لم تخطر على الذهن من قبل ، وحركت فيك العقل والوجدان ،

وتضطرك على الدوام إلى ترقى النظر فى الكون والخلق والحياة .. وليس التغيير .. أو التبديل أو النقص .

القرآن الكريم .. ربيع قلب المؤمن ..

نسماته ندية ..

وثماره شهية ..

ونفحاته شذية ..

وظلاله بهية...

والخلوة به ومعه سياحة فى اللانهاية ، لا تنفد عجائبها ولا تنقضى غرائبها .

لقد عشت من قبل مع عروس القرآن ..، مع سورة « الرحمن » ، وها أنا أنقل انفعالاتى وتأثراتى مع قلب القرآن ، مع (يس) ، بتواضع وصدق وأمانة ؛ راجياً من الله تعالى حسن القبول .

إنه أكرم مسؤول وخير مأمول ، والحمد لله رب العالمين .

قَلْبُ الْقــرآن

مما هو ملاحظ فى سور القرآن الكريم أن السورة الواحدة مهما طالت أو قصرت ، ومهما كان عدد آياتها ، فلكل منها موضوع رئيسى تعالجه ، بالإضافة إلى مواضيع كثيرة فرعية تراوح بين التشريع والتاريخ والتربية النفسية والحكمة والعقيدة ..، كلها فى النهاية تدور مع الموضوع الرئيسى ، لتمكنه وتبينه .

ومما هو ملاحظ أيضاً أن كثيراً من الحفاظ والمحدثين والمفسرين قد أوردوا روايات لأحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ تتناول فضائل سور القرآن الكريم ، وإضفاء صفة معينة على كل منها .

وهذه الأحاديث تختلف ضعفا وقوة من حيث السند .. وأكثرها لا يبلغ درجة الصحيح ، لذلك مال الكثيرون من العلماء المفسرين إلى عدم الأخذ بها ، مع أنهم أوردوها فى مقدمة تفاسيرهم لكل سورة ، على سبيل الأمانة العلمية فى النقل ،

وحجة القائلين بعدم الأخذ بهذه الأحاديث المبينة لفضائل بعض السور تعود إلى تورعهم عن تفضيل آية على آية ، أو سورة على سورة ، وهذا مما لا يجوز أبداً .

ونحن معهم فى هذا ..

فالقرآن الكريم كلام الله تعالى كل حرف فيه ، وكل كلمة لها نفس الاحترام والتقديس الذى هو لغيرها ، وكلام الله لا يفضل بعضه على بعض أبداً !!!

ولكن ، وأرجو أن يتسع صدر المتحنقين ، من القدامى والمحدثين ، إلى ملاحظة تتعلق بهذا الموضوع .. وهذه الملاحظة ذات شقين :

الأول : أنها - أى الأحاديث - ليست مفاضلة .

الثانى : أنها من قبيل الوصف المميز ؛ لا أكثر ولا أقل . وليس من الضرورة بمكان أن نحملها من مفهوم المخالفة فوق ما تحمل .

لقد وصف سيدنا رسول الله ﷺ سورة (يسۤ) بأنها قلب القرآن ..، فكأن القرآن الكريم جسد حى ، قلبه (يسۤ) ..

فهل هذا على التحقيق ما كان يعنيه النبى الأعظم ﷺ !؟؟
إن القلب بالنسبة إلى الجسد الحى كما هو معروف مركز الحركة العامة ، وقطبها ، ومحور الحيوية فى كل ذرة من هذا الكيان ..، وتوقفه عن النبض يؤدى من غير شك إلى النهاية بالوفاة .

فقيمة القلب من حيث تدفق استمرارية الحياة إلى الخلايا فى كل أنحاء الجسد لا ينكرها إلا جاهل أو معاند .

والسؤال : أين هى (القلبية) فى سورة (يسۤ) ؟؟
والاستدلال عليها يؤدى إلى كشف الحقيقة ، وإنزال الشهادة النبوية بحق (يسۤ) منزها السامى .

إن الخلق من عدم ، ثم الموت والبعث والنشور أمور وقواعد أساسية يرتكز عليها الإيمان السليم ، وهى لبه ...، بحيث تكون كل تصرفات الإنسان وتعامله مع الوجود من هذا المنطلق ، وبهذا أيضا تستوى مسيرته من غير اضطراب ولا قلق .. ولا نكد ، ولا انفصام ..!

فحين خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأول الآيات فى سورة « العلق » ، قرر أنه وحده الخالق ، ولا خالق سواه ..، ليقتلع من نفوس الجاهلين وعقولهم مغالطة « إبليس » لهم ،
قال تعالى : ﴿إقْرأ . بأسم رَبِّك الذى خَلَق .. ﴾ .

لكنهم ظلوا رهينة محبسهم فى دهاليز الظلمة ، وأنفاق النفاق ، يزين لهم شيطانهم واقع الحياة الدنيا وزخرفها وشهواتها .. فاعتقدوها وعبوا منها ، وتنكروا للبعث والنشور ، والحساب والعقاب ، ناسين بدء الخلق والتكوين ، ولو أنهم تذكروا لما فعلوا ..

وهذا هو المفرق الأساسى بين الإيمان والكفر ، وهو لب الموضوع ، وقلبه ..، وبتوقفه تكون النهاية بالموت ..، موت العقل والحس ، والتدبر والتفكر ..

وسورة (يسۤ) من المبدأ إلى المنتهى ، مع آياتها التى بلغت ثلاثا وثمانين آية (٨٣) تركز على هذا الموضوع الأساسى ، فلا تناقض ، ولا غرابة فى وصفها بأنها قلب القرآن .

ما جاء فى فضل (يٰس) من الحديث الشريف

أنقل إليك – عزيزى القارئ – طرفا من الأحاديث والآثار الشريفة التى أثبتها الرواة فى فضل سورة « يٰس » .

١ – عن قتادة عن « أنس » – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إنَّ لكُلِّ شيْءٍ قلْباً ، وقلْبُ القرآنِ (يٰس) ، ومن قرأ (يٰس) كَتَب الله لهُ بقراءَتها قراءة القرآنِ عَشْر مرات** »[1] .

٢ – عن « عطاء بن أبى رباح عن « أبى هريرة » – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إنَ لكل شيْءٍ قلْباً ، وقَلْب القرآن (يٰس)** »[2] .

٣ – وعن « الحسن » عن « أبى هريرة » قال : قال رسول الله ﷺ :

« **من قرأ (يٰس) فى ليلة أصبح مغفورا له ، ومن قرأ (حم) التى يذكر فيها الدخان أصبح مغفورا له** »[3] .

٤ – وعن « جندب بن عبد الله » قال : قال رسول الله ﷺ :

« **من قَرَأ (يٰس) فى ليلةٍ ابتغاء وَجهْ الله عَز وَجَلَ غُفِرَ له** »[4] .

٥ – عن « معقل بن يسار » – رضى الله عنه – قال : « إن رسول الله ﷺ » قال :

« **البقرةُ سنامُ القرآن وذروته ، نزل مع كل آيةٍ منها ثمانون ملكاً ،**

---

(١) رواه (الترمذى) .

(٢) رواه البزار .

(٣) رواه الحافظ أبو يعلى .

(٤) ابن حبان فى صحيحه .

وآستخرجت ﴿ الله لا إلٰه إلا هُو الحىّ القيوم ﴾[1] من تَحْت العرْش فوُصِلَتْ بها ؛ و (يٰس) قَلْب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تعالى والدّار الآخرة إلّا غُفِرَ لهُ ، وآقْرؤها على موْتاكمُ ﴾[2] .

رواه « النسائى » بزيادة : [فى اليوْم والليْلة] .

قال بعض علمائنا – رحمهم الله تعالى :

– من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة ، وليسهل عليه خروج الروح – والله تعالى أعلم .

وقال الإمام « أحمد بن حنبل » – رضى الله عنه – :

– حدثنا « أبو المغيرة » ، حدثنا « صفوان » قال :

كان المشيخة يقولون : إذا قُرِئت – يعنى (يٰس) عند الميت خفف الله عنه بها .

وقال « البزار » :

– حدثنا « سلمة بن شبيب » ، حدثنا إبراهيم بن الحكم « عن أبان » عن أبيه عن « عكرمة » عن « ابن عباس » – رضى الله عنهما – قال :

قال النبى ﷺ :

« **لَوَدِدْتُ أنّها فى قَلْب كلّ إنسانٍ من أمتى** » – يعنى (يٰس) – هذا غيض من فيض مما جاء فى فضل سورة (يٰس) .

ولا يتسع المجال هنا لذكر كل الآثار والأقوال والمرويات ، فنكتفى بهذا القدر ، فكلها جميعاً تصب فى هذا المحيط الزاخر .

---

(١) آية الكرسى .

(٢) رواه الإمام أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يٰس . والقرْآن الحكيم . إنَّك لمِنَ المرْسَلينَ . على صراطٍ مُسْتَقيم . تَنْزيلَ الْعَزيزِ الرَّحيم . لتُنْذِر قوْماً ما أُنْذِر آباؤُهُم فَهُم غافِلُون . لقد حَقَّ القوْل على أَكْثَرِهِم فَهُم لا يُؤمِنُون ﴾

تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم ، تَفتح بهذه الحروف المتقطعة ..

ولقد ذهب المفسرون فى استنباط وتأويل المقصود بها مذاهب شتى ، منها ما هو قريب من العقل والمنطق والحكمة ، ومنها ما هو متكلف .. قد حمل المعنى فيه فوق ما يحتمل .. فأوغل فى الغرابة .

قال بعضهم أنها أسماء للذات الإلهية ..

وقال بعضهم أنها أسماء للقرآن الكريم .

وقال آخرون بأنها أسماء للسور ..

وقالت طائفة بأنها للتنبيه ..، ففى تقطيعها ومدها وجرسها إيقاظ للحس الغافل ، كآلة التنبيه (الجرس) تماماً ..!

وهناك رأى أميل إليه – والله أعلم ، فيه لفتة طيبة .. فالقرآن الكريم معجزة ..، لا يقتصر إعجازه على ناحية واحدة ، ومن التجنى والإفتئات على الحق وقف إعجازه على الناحية اللغوية والبلاغية .. وحدها ، مع أهميتها الآنية الزمنية فى العصر الذى نزل فيه .

إنه معجز فى الإخبار عن الماضى ..

ومعجز فى إحكام تشريعه الذى لا يأتيه الباطل ..، تثبته على مدار

القرون والأجيال والأمم .. تطلعات الإنسانية إلى العدل والرقى من غير حجر على عقل أو علم .

معجز فى الحقائق الكونية التى تتبدى للألباب كلما خطت البشرية خطوة إلى الأمام فى مضمار العلم والاكتشاف ..

وليس هذا إلا قليل من كثير ﴿**وما أوتيتُم من العِلمِ إلّا قليلا**﴾ ، فإن هناك الكثير الكثير مما يزال فى رحم الغيب ..

إذاً .. إعجاز القرآن الكريم قائم مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، مستمر إستمرار الرسالة المحمدية فى هيمنتها على الدين كله وختمها للرسالات .

عصا « موسى » – عليه السلام – والآيات التسع انقضت بانقضاء زمنها وضرورتها ، ومعجزات « عيسى » – عليه السلام – كذلك أيضاً ، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

والملاحظ أن هذه المعجزات وغيرها – كناقة « صالح » – عليه السلام – فى آنيتها الزمنية ترتبط بأعلى ما وصل إليه القوم وأرقاه ، ثم يكون التحدى ، ومن هنا تكون المعجزة ..

برع قوم « موسى » ، المعاصرون له من أهل مصر و « بنى إسرائيل » ، فى السحر ، فأذهب الله كيدهم وسحرهم بالعصاء .

وبرع قوم « عيسى » فى الطب فكان التحدى من جنس ما برعوا فيه ..

وبرع العرب فى الفصاحة والبلاغة والبيان ، والشعر ..! فكان إحكام القرآن الكريم فى فصاحته وبلاغته إعجازاً لهم وتحدياً ..

والاحرف المقطعة فى أوائل السور تزيد فى التحدى والاعجاز ..، وكأن المقصود منها – والله أعلم – أن البارى عز وجل يقول لهم :

- هذه هى المادة الخام لكلمات القرآن الكريم ..، فمنها ركبت وصيغت فائتوا بمثلها إن كنتم صادقين فى دعواكم أن هذا القرآن من عند « محمد » ؛ أو أنه يلقى إليه من قرين ..، أو انه يلقنه إياه فلان أو علان .

﴿وإن كُنْتُم فى ريْبٍ مِمَا نَزَّلنْا على عَبْدنا فَأْتُوا بسُورةٍ من مِثلِهِ ﴾[1]
﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورة مِثْله وأدْعوا من استطعْتُم من دُون الله ﴾[2] .

(الياء) ، و (السين) حرفان ، لكنهما عند التلفظ بهما ينقلبا إلى كلمة ..، رأى فيها البعض اسم معنى لرسول الله ﷺ ، فاتخذها كذلك : (ياسين) ، ومثلها (طه) تماماً ..

ثم أضحى هذا اللفظ اسم علم من بعد .

ومن قبيل ذلك (مختار) و (مصطفى) ..، وأصلهما : المختار و المصطفى ..

و (يسۤ) اسم السورة أيضاً ، وكذلك (طه) ..، نقول : سورة (يسۤ) وسورة (طه) ..

وليست كۤهيۤعۤص ، اسماً للسورة ، فهى سورة (مريم) كما هو معلوم ، وغيرها مثلها ..، مثل (الدخان) - (حـم) .

ومما قيل فى معنى (يسۤ) ، قول ترجمان القرآن « عبد الله بن عباس » - رضى الله عنهما - بأنها : يا إنسان ..، وإلى هذا القول ذهب طائفة من علماء وفقهاء التابعين - رضى الله عنهم -، قال « سعيد بن جبير » : هو كذلك فى لغة الحبشة . وعلى هذا القول يكون المعنى أن الخطاب فى مطلع السورة موجه إلى الإنسان .. بصرف النظر عن انتمائه الزمنى والقبلى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .
(٢) سورة يونس الآية ٣٨ .

والأمى ..، ليستغرق البشرية كلها ثم يضعها وجها لوجه أمام مسؤولية التصديق والإيمان بالقرآن ، الصراط المستقيم ..، فلا تزيغ إلى غيره ، ولا تنحرف إلى سواه .

ثم يقسم الله تعالى بالقرآن ، واصفاً إياه بالحكمة والإحكام (الحكيم) الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فكم من باطل على مر التاريخ حاول أن يتصدى للقرآن بالنقض والنقد ، أو التخريب والتحريف .. فلقى مصرعه وزال ..؟!

وكم من باطل حاول أن يغدر .. فانتهى إلى غير رجعة ..؟! وصدق الله العظيم ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1] .

والقسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم ينصب على نبوءة « محمد » ﷺ ورسالته ، وبعثه إلى الناس كافة ..

تلك النبوة التى عجب لها العرب .. من « قريش » وغيرهم ، واستنكروها وتصدوا لها بالتكذيب والافتراء ، وقالوا فيها أقوالاً كثيرة .. قالوا عن رسول الله ﷺ بأنه شاعر .. وكاهن .. ومجنون !!، ولقد رد عليهم واحد منهم بعد أن فكر وقدر .. ثم فكر وقدر .. ثم عبس وبسر .. ثم أدبر واستكبر .. وقال إن هذا إلا سحر يؤثر ..، ليس ما يقوله « محمد » شعراً ..، وليس هو بكاهن .. ولا مجنون ..، لكنه ساحر ..!؟

هذا ما قاله لهم « الوليد بن المغيرة » المخزومى ..

ومن عجب أن رؤوس الكفر من « قريش » كانوا لا يفتأون يصفون « محمداً » ﷺ بـ « الصادق » و « الأمين » !!

وأولى بالذى لا يكذب على الناس أن لا يكذب على رب العالمين ، لكنها فتنة الضلالة الجاهلية ، وعماوتها وغبائها .. زينها لهم شيطانهم وإبليسهم .

﴿ مِنَ المرْسلين .. ﴾

من الذين آصطفاهم الله واختارهم على مدى حياة البشرية ، من لدُن آدم « عليه السلام » إلى ختم الرسالات والنبوات بك .. والله أعلم حيث يجعل رسالته ، يهدون إلى الحق ، ويجاهدون الباطل ..، يرفعون عن عقول الناس وعيونهم ، عن بصائرهم وأبصارهم غشاوات الظلام والجهالة ..

﴿على صِراط مُستَقيم ﴾

الإسلام ..!

والدين عند الله الإسلام ..!!

فكل نبى أو رسول يحمل طرفا وجزءاً من الإسلام يغطى فى الإصلاح المساحة « الديموغرافية » التى بعث إليها .. قومه وعشيرته .

رغم اختلاف الأسماء فى الظاهر : كصحف « إبراهيم » .. وزبور « داود » ، وتوراة « موسى » ، وانجيل « عيسى» .

وهى عند التحقيق ، سواءً على صعيد العقيدة من إيمان بالخالق عز وجل ، وإفراده بالربوبية ، أو على صعيد الاصلاح الاجتماعى والعدالة ..، تبرز فى الاطار الإسلامى ، ويحتويها القرآن .

إنها تمضى على الدرب مع تعاقب الدهور ..

على (الصراط) الذى لا عوج فيه ، السوى (المستقيم) ، الذى لا يتأثر بالأهواء ولا يزيغ مع المصالح والنزاعات والتطرفات .

وهذا الصراط المستقيم بقالبه القرآنى ومضمونه الربانى **﴿تنزيل العزيز الرَّحيم ﴾** ..

فالذى أحكم الآيات ..، هو الذى خلق الخلق وأحكم البناء ، سماوات بلا عمد ..، فضاء رحباً لا نهاية له ..، زاخراً بالأفلاك والكواكب والنجوم .، قدره وأحسن تقديره ...، وجعل فيه ناموسه وقانونه ..؛

وأرضاً وضعها للأنام ..، حافلة بكل خير ورزق وعطاء ، يسيروا فيها ..، ويستخرجوا دفينها ..، ويعمروها بالقسطاس الذى قامت عليه ، بالعدل والتوازن فى كل حركة وحياة فيها ، من غير ظلم ولا حيف ...

البذرة فى الأرض ... من أجل أن تخرج نبتاً وتعطى ثمراً ..، لها (معادلة) !!!

لابد من ماء وهواء وحرارة شمس .. وزمن ..، كل بمقدار فإذا ما (طغى) عنصر على آخر ، بالنقص أو الزيادة ، سقطت المعادلة ..

أو لا ترى معى – أيها القارئ العزيز – أن هناك وسيلة قربى وصلة نسب ووشيجة رحم بين كلمة (المعادلة) وكلمة (العدل) !!

صاحب هذه القوة المطلقة .. فى الخلق والابداع ..

وصاحب هذه القوة فى وضع الناموس والقانون ، من غير تخلف ولا قصور ..

صاحب ذلك كله هو (العزيز) ..– القوى –!!

عزة من غير طغيان .

وقوة من غير ظلم ولا جبروت .. ولا بطش ولا تنكيل .. ولا تسخير ولا ارغام .. عزة صنوها الرحمة ... ينتشى لها كل مخلوق ذى قلب ووجدان ، وحس وشعور ...، يكبر بها ويعظم .. ويتضاءل فى غيرها ويصغر .. ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ .

ولو أن قريشاً قد فكرت سوياً ، من غير نزوع إلى الهوى والسقوط فى

طين الخبال والضلال ، وأدركت ما نبهها إليه القرآن الكريم من رحمة الله بها .. لكان خيراً لها ..

لقد خاطبها الله تعالى بالحب والألفة يذكرها برحمته لها ، لعلها تنهض من وهدة الشيطان وحفرة إبليس إلى ذروة الإيمان ..

﴿لإيلافِ قريْش إيلافهم . رِحْلَةَ الشتاءِ والصَّيْف . فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البيْت الذي أَطْعَمُهم من جوعٍ وآمنَهُم من خَوْف ﴾ .

لكنها كانت فى غفلة ..

وبئس مثوى الغافلين ، دنيا وآخرة !!

﴿... فَهُمْ غافِلون ... ﴾

﴿ لِتُنْذِر قَوْماً ما أُنذِر آباؤهم فَهُمْ غافِلُون .. ﴾

يقول الإمام « ابن كثير » - رحمه الله -:

(يعنى بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم ..)

ذلك أن عموم رسالته ﷺ إلى الناس كافة واضح فى كثير من آيات القرآن الكريم ..

﴿ وأَرْسَلْناك للناسِ رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴾[1]

﴿ وما أَرَسَلْناك إلّا رحْمةً للعالمين ﴾[2]

﴿ وما أرسَلْناك إلّا كافَّة للناسِ بشيراً ونذيراً ﴾[3]

وفى الحديث الشريف ، قوله ﷺ :

---

(١) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٣) سورة سبأ الآية ٣٨ .

« .. وكان كلّ نبى يُرْسل إلى قَوْمِهِ وأُرْسِلْتُ للناس كافّة » .

﴿ إنَّا جَعَلْنا فى أعْناقهم أغْلالاً فَهِيَ إلى الأَذقانِ فَهُمْ مُقْمحون . وجَعَلْنا من بَيْن أيديهم سَدّاً ومن خَلفِهِم سَداً فأغشيناهُم فهم لا يُبصرون . وسواءٌ عَلَيْهم أَأَنْذَرْتَهُم أمْ لم تُنْذِرهُمْ لا يُؤمنون . إنما تُنذر من اتَّبَعَ الذكْر وَخشى الرَّحمن بالغيب فَبَشِرْهُ بمغفرةٍ وأجرٍ كريمٍ . إنا نَحنُ نُحيِي الموْتى ونكتب ما قدَّمُوا وآثارهم وكُلَّ شيْئٌ أَحصَيْناهُ فى إمامٍ مُبين ﴾ .

هناك فرق بين الغل والقيد ..، فالقيد ما شدت به الأيدى أو الأرجل ، فمنعها عن الحركة ..، لا تستطيع تناول شئ ولا السعى إليه ..، أما الغل فهو بالإضافة إلى ربط الأيدى بالقيود إلا أنها تشد إلى أعلى .. عند العنق .. الذى هو قاعدة الرأس ، وفى ذلك ما فيه من المبالغة التى لا تخفى ..

والذى يفعل به ذلك تدفع يداه ذقنه إلى أعلى فترتفع رأسه من غير قصد ، ويسمى : مقحماً !!

إنها صورة معنوية رمزية لشلل الحركة السوية .. وكذلك شلل الرؤية والتفكير السليم .. بالسد الذى جعل من أمامهم ..، حتى الارتداد إلى الخلف محظور عليهم بسد من خلفهم .. أيضاً ..، إنه الجمود التام .. والوقوع فى الهوة ..

لم يُر أبو جهل ولا « أمية بن خلف » مقيدين مغلولين ..، ولا غيرهما من رؤوس الشرك والكفر والضلالة .. على هذه الصورة المادية لكنهم كانوا فى جموحهم عن الإيمان والإذعان ، والانتظام فى طاعة الرحمن ، مثلهم مثل المقمحين !!

لماذا ؟

لأنهم سواء عليهم أأنذرتهم – يا محمد – أم لم تنذرهم ، لا يؤمنون ..، لقد آثروا طريق الشيطان واتبعوا سبيله ، وأصموا آذانهم عن سماع كلمة

الحق ، وأغمضوا عيونهم عن رؤية النور ، واستمرؤا الظلام ..

وذلك فى علم الله تعالى الأزلى ، فى علمه المحيط ..

فزادهم بما أرادوا واختاروا ..

وهذا من قبيل قوله تعالى : ﴿**إنَّا جَعَلْنا على قلوبهم أكنَّه أن يفقهُوهُ وفى آذانهم وقْرا** ﴾[1] .

وهذه الغشاوة على البصائر ، على القلوب والأفئدة ، كانت أيضاً تنال عيون المشركين الضالين وأبصارهم ..

يُروى أن « أبا جهل » قال ذات يوم :

– لئن رأيت « محمداً » لأفعلن .. وأفعلن ..

فكان رهطه ، ومن معه ، إذا رأوا رسول الله ﷺ يقولون لأبى جهل :

– هذا « محمد » ...

فيقول :

– أين هو ؟ أين هو ؟

لا يبصره ولا يراه .. وهو أمامه .

﴿**إنَّ الذين حَقَّت عليهم كَلِمَةُ ربِّك لا يؤْمِنُون ولو جاءَتْهُم كُل آيةٍ حتى يَرَوا العذاب الأليم** ﴾[2] .

﴿ **إنَّما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْر ..** ﴾ فهؤلاء هم الذين ينتفعون بإنذارك ، فيتبعون القرآن ، يؤمنون به .. وينبذون ما كان يعبد آباؤهم من قبل ،

﴿ **وخَشِيَ الرحمٰن بالْغيْب ..** ﴾

الإيمانُ بالغيب أول سمات التقوى ..

يقول الله تعالى فى مطلع سورة (البقرة) :

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٧

(٢) سورة يونس الآية ٩٦ – ٩٧ .

﴿ أَلمْ . ذلك الكتابُ لا رَيْب فيه هُدىً للمتقين . الَّذين يُؤْمِنونَ بالغيب ... ﴾

وليس إيماناً فقط .. بل خشية أيضاً .. فيها الإذعان والخشوع والرهبة ..

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال :
« أَنْ تَعْبُد الله – تعالى – كأنَّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنَّهُ يَراك » .

والذى اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب له البشرى ...، بمغفرة لذنوبه وما قدمت يداه ...، وأجر كريم .. لا مِنَّةً فيه ولا آنقطاع ...، فى جَنَّةٍ عَرَضَها السَّماوات والأرض أُعدَّت .. للمتقين .

عزيزى القارئ :

إن كل ما مر من آيات بينات ، من مطلع السورة إلى ها هنا .. تمهيد وتقديم ، لأمر جلل عظيم ، هو عقدة الفصل بين الإيمان والكفر ...، إنه البعث وإحياء الموتى ، للحساب والعقاب ..

إنه الموضوع الرئيسى فى السورة الكريمة .. ومحورها ، وكل آياتها تصب فيه ، وتدور حوله ، وتحرك فى العقل والقلب كل منطق وحس ..
﴿إنا نحن نحيى الموتى .. ﴾

أهم قضية ..
لأنه يستتبعها الحساب ...، الجزاء أو العقاب ..
والنقلة الكبرى إلى حياة أبدية سرمدية ،
كل أولئك غير منظور ولا ملموس ..

وعليه فإن كثيراً من الخلق ، من بنى آدم يتيهون فى مهايه الضلالة ، وبيداء الجهالة ، وينزعون إلى مادية الأرض ، فيكفرون بالله ..

وليس لهم العذر ..

لإن الاستقراء والتفكير أساسان من أسس كينونة الإنسان المتميزة عن سائر الخلق ...، ولو أن الإنسان نزع إليهما حقاً وصدقاً ولم يطع هواه وجعلهما رائده .. لما ضل وزاغ ..،

ومن ثَمَّ .. اطمأن وهدأ .. ولم يبد قلقاً مضطرباً ..

ألا ترى معى – أيها القارئ العزيز – أن النكد عنوان رئيسى وبارز فى حياة أولئك الذين لا يؤمنون !؟

أو لا ترى معى أيضاً أن الإيمان والأمان والاطمئنان .. حلقات فى سلسلة !؟ ومن معدن واحد !؟

لقد قال « إبراهيم » – عليه السلام –

﴿رَبِّ أَرِنِى كيف تحيى المَوْتى .. ﴾

ويظن البعض أن فى السؤال تطاولاً .. وشكا ..، وحاشا لـ « إبراهيم » – عليه السلام – الذى كان أمة ، أن يتطاول أو يشك !

هلا دققت فى الآية ..؟

لقد سأل « إبراهيم » : كيف ؟ إنه يسأل عن الكيفية ولا ينكر الأساس ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿ **بلىٰ .. ولكن لِيَطْمئِنَّ قَلْبى ..** ﴾ ، إنَّه يريد للإيمان أن يشفع بالاطمئنان ..

﴿ أَوْ كالَذى مَرَّ على قَرْيَةٍ .. ﴾

وقيل إنه « العزير » ...، فَوَجَدَها خاوية على عروشها ..، تهدمت وتهاوت ، ولم يبق من أثر فيها للأحياء ...، اللهم إلا العظام النخرة البارزة من القبور ..

فسأل .. وتساءَل : ﴿ **أنى يحيى هذه الله بعد موتها** ﴾ !! لم ينكر على

الله تعالى مبدأ الإحياء ، وقد نسبه إليه ، ولكنها خاطرة من خواطر النفس فى سعيها لبلوغ مرتبة الاطمئنان باليقين ..

وكانت التجربة فيه ..، فأماته الله مائة عام ثم بعثه .. وكانت التجربة أيضاً فى حماره .. وطعامه ..

وكذلك أحيا الله تعالى الميت لـ« عيسى » – عليه السلام –.. من باب الإعجاز الربانى ، بقصد شد الناس وجذبهم إلى الإيمان بنبوة « عيسى » ورسالته .

صحيح أن كل ذلك وقائع تاريخية ، قد غيبها الماضى ..، مع « إبراهيم » و « عزير » و « عيسى » ..

لكن هناك واقع معاناة « يومية » تشهد على هذه الحقيقة ..

﴿وفى أَنفِسكُم .. أفلا تُبصرون ﴾ ؟!

كان رسولنا الأكرم ﷺ يقول حين يستيقظ من نومه :

« الحمد لله الذى أحيانى بعدما أماتنى وإليه النشور » .

وعليه فقد سمى النوم : الميتة الصغرى .

فنحن معشر الخلق .. من بشر وغيرهم ، نموت ونحيا فى كل يوم ...!!

ولتقريب مفهوم الإحياء والبعث ، يقول النبى ﷺ :

« والله لتموتُنَّ كما تنامون ولتُبعَثُنَّ كما تستيْقِظُون !! »

ولا نريد أن نسترسل فى موضوع النوم والموت أكثر مما قلنا ، ففى هذه اللفتة المحمدية من العلم واليقين ما يستغرق كل اجتهادات ودراسات الأولين والآخرين .

﴿ونكتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارهم وكُل شَئْ أَحْصَيْناهُ فى إمامٍ مُبين ﴾ .

نُحْصى عليهم أَعمالهم ، وما خَلَفُوهُ وراءَهُم من أَثَرٍ ، فى لَوْح محفوظ

عندنا ، لنجازيهم عليها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ..

وقال بعض علمائنا - رحمهم الله - بأن المقصود بالآثار .. خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، واستشهدوا لقولهم هذا بأحاديث عن رسول الله .

روى الإمام « أحمد » فى مسنده عن « جابر بن عبد الله » - رضى الله عنهما : قال :

« خلَتْ البِقاعُ حوْل المسْجد ، فأراد « بنُو سَلِمَةَ » أن ينتقلوا قرب المسجد ، فَبَلَغَ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم :

- إنّه بلغنى أنكم تريدون أنْ تنتقلوا قُرب المسجد ؟

قالوا :

- نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك .

فقال ﷺ :

- يا « بنى سلمة » دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » .

﴿واضْرِب لهُم مَثَلاً أصْحابُ الْقَرْيةِ إذ جاءَها المرْسلُون . إذْ أرْسَلْنا إلَيْهم اثنيْن فكذَّبوهُما فعَزَّزْنا بثالثٍ فقالوا إنّا إليْكم مُرسَلُون . قالوا ما أنْتم إلَّا بَشَرٌ مِثْلَنا وما أُنزَل الرحمْن من شئٍ إنَ أنْتم إلا تكْذِبُون . قالوا ربُّنا يعلم إنا إليكم لمُرسَلُون وما علَيْنا إلّا البلاغُ المبين . قالوا إنّا تَطَيَّرنا بكُم لئن لم تنتهوا لَنرْجُمنَكُم ولَيَمسَّنّكُم مِنّا عذابٌ أليم . قالوا طائِركم معكم أئِنْ ذُكرتُم بَلْ أنتُم قوم مسرفون .

وجاءَ من أقْصى المدينة رَجُلٌ يسعْى قال يا قومْ اتبعوا المرْسلين . إتبعوا من لا يَسألكم أجْراً وهُم مُهتدون . وما لِيَ لا أعْبُدُ الذى فطرنى وإليه تُرجَعُون . أأتخذُ من دُونِهِ آلهةً إن يُرِدْنِ الرحمٰنْ بِضرٍ لا تُغن عَنى شفاعَتُهُم شيئاً ولا يُنقِذون . إنّى إذاً لفى ضلالٍ مُبين . إنِّى آمَنْتُ بِرَبِكم فاسمعون . قيل ادْخُل الجنَّة قال يا ليتْ قوْمى يعلمون بما غفَر لىّ ربى

وجعلني مِنَ المكْرمين . وما أَنزَنا على قوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ من جُنْدٍ من السماء وَما كنَّا منزلين . إن كانت إلا صَيْحةً واحِدَةً فإذا هُم خامدون ﴾ .

﴿وآضْرِبْ لهُم مَثلاً أصحاب القَرْيَةِ إذْ جاءَها المرْسَلُون ﴾ كان منطق « قُرَيْش » فى تكذيب الرسالة والرسول يتسق مع منطق من سلف من الأمم والأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ، وافتروا على الله وسلكوا سبيل الشيطان ..، كقوم « نوح » و « هود » و « صالح » و « لوط » .. وكذلك « أصحاب القرية » ..

فقوم « نوح » أهلكوا بالطوفان ..

وقوم « هود » أهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها – الله – عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ..

فهل ترى لهم من باقية ؟؟

وقوم « صالح » جعلوا مع مدائنهم عبرة لمن يعتبر ..، إذ قلبت ديارهم ومساكنهم رأساً على عقب ..

وقوم « لوط » ابتلعتهم مع مدنهم الأرض وغيبوا فى باطنها ، وفرعون وجنوده كانوا من المغرقين .

تلك أمم قد سلفت ، واحتملت بهتاناً وإثماً ، ثم عوقبت فى الحياة الدنيا بألوان من العذاب الشديد ، جزاء إفكها وبغيها .

وكذلك أصحاب القرية ..!

فأضربها – يا « محمد » – لقومك مثلاً ..، لعلهم يتعظون ويرعوون ، فلا يقعوا فى أحابيل الشيطان وشباك إبليس فيصيبهم ما أصاب الماضين .

فأى قرية هى ؟ وما قصة أصحابها ؟

هنا تختلف آراء المفسرين والمؤرخين ، وتذهب مذاهب شتى ، منها ما

هو قريب من العقل والمنطق ، ينتظم مع الواقع الزمنى ، ومنها ما هو مغرق فى البعد .. وقد حمل فوق ما يحمل النص القرآنى[1] الكريم .

ونحن فى هذا الصدد نتناول القصة كما وردت فى القرآن الكريم دون اعتساف فى التأويل .. أو الزيادة .

ولئن أجزنا لانفسنا تسمية الأشخاص محور القصة فذلك تمشياً مع رأى الأغلبية من علمائنا - رحمهم الله .

فيروى أنه كان فى هذه القرية رجل ممن هداهم الله تعالى ، إسمه « حبيب النجار » ، قيل كان يعمل إسكافاً ، وقيل قصاراً ، (الذى يعمل فى تطريق النحاس) ، وقيل غير ذلك .

وكان يحكم هذه القرية (المدينة)[2] حاكم مستبد طاغية كافر بالله تعالى ، قد حمل الناس على الكفر وأذعنهم لمشيئته فى الظلم والفجور .

وحاول « حبيب النجار » بما آتاه الله من صفاء إيمان وصدق يقين وفهم .. أن يصلح أحوال قومه بدعوتهم إلى الحق والعدل ، ونبذ الباطل ..، لكنهم عاندوه وقاوموه ، إما استزلاماً للحاكم أو رهبة منه ..،

ثم جاءه التهديد بالقتل لئن لم ينته عن دعوته هذه ، ثم أكره على مغادرة القرية ، فآوى إلى كهف آتخذه سكناً .. ومعبداً .. ومحراباً ..، فى ضاحية من ضواحيها .

﴿ إذ أَرْسلْنا إليهم آثْنَيْن فكذّبُوهُما فَعَزَّزْنا بثالثٍ فقالُوا إنّا إليْكُم مُرْسَلُونَ ﴾

---

(١) يُرجى مراجعة قصة (أصحاب القرية) فى كتابنا (قصص القرآن للأطفال) طبع (مكتبة القرآن) - القاهرة - .

(٢) القرآن الكريم يعنى المدينة ، كما قال إخوة « يوسف » لأبيهم : ﴿ واسْأَل القرية ﴾ .

بعد رحيل « حبيب » عن القرية ، واستكانة الناس إلى صوت وسوط طاغيتهم ، الحاكم الفاجر ، الوثنى المستبد ، أرسل الله تعالى إلى الناس من أهلها رسولين من عبيده ..، حملهما أمانة الدعوة إليه ، واستنقاذ الناس من براثن الكفر وأنياب الجهالة ، وتخليصهم من هوة العذاب المنتظر ..

وقيل إن إسم هذين الرسولين : « صادق » و « صدوق » .

فكذبهما الناس ، وردوا عليهما مقالتهما ...، وأحبطوا محاولتهما فى الهداية والإصلاح ..

﴿ فَعَزَّزْنا بثالثٍ ﴾

ثم قيض الله تعالى رسولاً ثالثاً ليكون ردءاً وعوناً لـ « صادق » و « صدوق » فى تأييد الرسالة .

قال الثلاثة :

﴿ إنّا إليْكم مُرْسلُون ﴾

أرسلنا من عند الله تعالى ، نحمل إليكم الخير ولا نريد بكم الشر ، ننذركم أن تتركوا هذه الأوثان والأصنام ، وتقيموا ميزان الحق فى مجتمعكم ، وتتوبوا إلى الله بارئكم ...، ففى مشيئة الرحمة ، وفى ظله . الطمأنينة والسلامة ..

وإلّا .. فإنكم معرضون لعذاب الله وعقابه ، لا تبطشوا بعقولكم وبصائركم حتى لا يبطش الله بكم ، و **﴿ إنَّ بَطْشَ رَبِّك لشديد ﴾**

وكانت دعوة المرسلين الثلاثة فى رفق ولين ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، بالأناة والصبر ، من غير إثارة ولا ضجيج .. ولا انفعال ، لذا أخذت مدّاً زمنياً .. وحواراً ..

حتى الحاكم نفسه لم يقسرهم على موقف فيه تشدد وتشنج ..؛ كما فعل من قبل مع « حبيب » .

إن أول ما كان يجابه به الأنبياء من أقوامهم ، فى الدعوة إلى الله ، هو التكذيب ، لذا كانت المعجزات لبعضهم – صلى الله وسلم عليهم – دليلاً وقرينة على صدقهم .

ولم يتخلف (أصحاب القرية) عن هذا الأسلوب ، فقالوا للمرسلين الثلاثة :

﴿ ما أَنتُم إلّا بَشَرٌ مِثْلنا .. وما أَنْزَلَ الرحمٰنُ من شئٍ .. إن أَنْتُم إلّا تكْذِبُون ﴾

ولقد آستند (أصحاب القرية) فى تكذيب الرسل الثلاثة إلى نفس ما استند إليه المكذبون السابقون ، ولقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك فى أكثر من موضع .

قال تعالى :

﴿ ذٰلكَ بأنه كانَتْ تَأْتيهم رُسُلُهم بالبيّناتِ فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدوننا ﴾

﴿ وَلَئِن أَطعْتُم بَشَراً مِثْلكم إنكُم إذاً لخاسِرون ﴾

﴿ وما مَنَعَ الناس أن يُؤمِنُوا إذ جاءَهُم الهُدى إلّا أن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رسُولاً ﴾

﴿ وقالُوا ما لهٰذا الرسُول يأكُلُ الطعام وَيمشى فى الأسْواق ﴾

﴿ ما هذا إلّا بَشرٌ مِثْلكم يَأْكُلُ مِمَا تَأْكُلُونَ مِنْه ﴾ .

لقد كبر عليهم أن يكون الرسول إليهم واحداً منهم ، من جنسهم من طينتهم .. من بشريتهم ..!! فكيف يفضل عليهم ؟ وبماذا ؟

قصرت عقولهم وأفهامهم ومداركهم عن إدراك المعنى والمغزى ، وشدتهم طينة الأرض إليها وجعلوها مقاييسهم ..

كما قال سفهاء قريش تماماً :

﴿ لوْلا نزل هذا القرآن على رَجُل من القريتين عظيم ﴾ ، وهم يعنون بالقريتين « مكة » و « الطائف » ، ومقياس العظمة عندهم من موازين الأرض المادية كالغنى والسلطان والنسب والحسب .. وغير ذلك .

﴿ قالُوا ربُّنا يَعلم إنّا إليْكم لمُرْسَلُون وما عَلَيْنا إلّا البلاغ المبين ﴾ .

إن الذى أرسلنا هو وحده الذى يعلم صدقنا فى دعوانا ، لا أنتم ..!

وبالإضافة إلى موضوع الرسالة علينا أن نصبر ونتحمل ولا نيأس ، وعلينا أن نبين لكم بكل ما أوتينا وقدر لنا من منطق صائب ورأى ثاقب متقلبكم ومثواكم ، نحذر وننذر .. ونبشر .. **﴿وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾** ..

واستمر الرسل الثلاثة فى أداء واجبهم وتبليغ أمانتهم .. ردحاً من الزمن ، فى أوساط القوم فى القرية ، لا ييأسون ولا ييئسون .. ولا يتراجعون ..

ولعل وضعاً اقتصادياً سيئاً نزل بالناس ، فشحت مواردهم ، وقل رزقهم ..، فنسبوا ذلك إلى وجود هؤلاء الرسل الثلاثة بين أظهرهم ..

ف **﴿ قالُوا إنّا تَطيَّرْنا بكم .. ﴾** تشاءَمنا من وجودكم ، لقد كنتم نذر سوء وشر بدلاً مما تدعونه من الخير فى دعوتكم

﴿ لَئِنْ لم تَنْتَهُوا لَنرجُمِنَكُم وليَمسّنّكُم مِنَا عذابٌ أليم ﴾ فكفوا عن تقريع آذاننا بترهاتكم وأباطيلكم .. لقد ضقنا بكم ذرعاً ، فإن لم تنتهوا عن ذلك قمنا برجمكم بالحجارة وحصبكم بالحصى حتى نقضي عليكم ..

ولسوف نعذبكم قبل هذا عذاباً أليماً ..

ورد الرسل بحكمة ومنطق .. وتقريع شديد فيه هَزٌّ لعقول القوم

ووجداناتهم التى جمدها الجهل عن كل حس وإدراك .
﴿ **قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُم** ﴾ تحملونه فى ثنايا الصدور وطيات النفوس ، ورواسب الأعماق ..، وظلام العقول التى عشش بها الشيطان ، فباض وفرخ ..

حين تذكرون بالوعد والوعيد ، تأخذكم العزة بالاثم ، وتزدادون ثورة وطغياناً ، وهذا هو إسراف الجهل بعينه ﴿ **أإن ذُكِّرْتُم بل أَنْتُم مُسْرِفون** ﴾ !!!

وتنبه « حبيب » ..

تنبه من سرحته وخلوته ..، من جولته البعيدة فى الآفاق ، تنبه إلى ضرورة العودة إلى الناس ، إلى أهل القرية ، ليكون قريباً من الأحداث ، ويباشرها ..، موفياً بالعهد مع الله تعالى
﴿ **وجاءَ من أقصى المدينة رجل يسْعى ..** ﴾

جاء مسرعاً على عجل .. يسعى ، يجدد الدعوة ، ويتابع المسيرة ، ويعلنها صيحة قوية مدوية .
﴿ **قال يا قَوْمِ اتَّبِعُوا المرْسلين . اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكم أَجْراً وَهُمْ مُهْتدون** ﴾

وبدلاً من أن يستفيق الناس على دوى الصيحة .. ويهتدوا إلى الحق ، طاشت عقولهم ، وذهبت ألبابهم ، وفقدوا أعصابهم ..

لقد فوجئوا بـ « حبيب » يعود إليهم كما خرج من بينهم ، بل أشد فى الدعوة وأثبت ، فأمسكوا به .. وأوثقوه ، وحملوه فى أغلاله إلى كبيرهم وشيطانهم ، حاكمهم الطاغية ، الذى هدده وتوعده على مجاهرته .. وعصيانه

وقال « حبيب » فى عزة المؤمن وصلابة الداعية :
﴿ **وما لِيَ لا أَعْبُدُ الذى فطَرني وإليه تُرْجَعُون . أَأَتخذ من دُونه آلهةً إنْ**

يُرِدْن الرَّحْمن بضُرّ لا تُغْنِ عنى شفاعَتُهم شيْئاً ولا يَنْقِذون . إنى إذاً لفى ضلالٍ مُبين . إنى آمَنْتُ بِرَبّكُم فاَسْمعُونَ ﴾

فضرب « حبيب » وعذب ، وأنزلت به صنوف من الهوان الشديد ، فما لأن ولا ضعف ولا تراجع ،

ثم لفظ أنفاسه الطاهرة تحت وطأة الأذى ..

فماذا كان من شأنه ؟

إن الصورة القرآنية هنا .. من أروع وأسمى الصور وأعلاها فى بيان أجر الشهيد ، وسمو حب « حبيب » للهداية والنور ،

﴿ **قيل آدْخُل الجنّة ..** ﴾ فوْراً ومن غير إبطاءٍ ولا تأخير ، ولا آنتظار إلى يوم يبعثون ..

كما حدث المصطفى ﷺ أصحابه عن شهداء يوم « أحد » بأن أرواحهم معلقة فى قناديل تحت ظل العرش ..، أو أنها فى حواصل طير خُضر ترد أنهار الجنة ..

وقال « حبيب » وقد عاين النعيم :

﴿**ياليْتَ قوْمِى يَعْلمُونَ بما غَفَر لى ربّى وجَعَلنى من المكرمين** ﴾ .

يا ليت ..!!

لو علموا ذلك لتبدل حالهم ومآلهم ..،

﴿ **وما أَنْزلْنا على قوْمِهِ من بَعْدِهِ من جُنْد من السَماء وما كُنّا مُنْزلين . إن كانت إلّا صَيْحةً واحِدَةً فإذا هُمْ خامدون** ﴾ .

وحقت كلمة ربك على أهل القرية بالعذاب الشديد .. لم يبعث الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة يأخذونهم بالعقاب ..

لم يرسل عليهم طوفاناً .. ولا ريحاً صرصراً عاتية ، ولم يخسف بهم

الأرض ، ولم يجعل ديارهم عاليها سافلها ، فقط .. صيحة واحدة ، فإذا هم خامدون !!

﴿يا حَسْرَةً على الْعَبادِ ما يأتيهم من رسولٍ إلّا كانوا به يستهزئون . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكنا قَبْلَهم من القُرون أنهم إليْهم لا يَرْجعون . وإنْ كُلٌّ لمّا جميع لديْنا محضرون﴾

إنها نفس الأفكار الشيطانية التى يقول بها الماديون اليوم ..، فهى استجرار تاريخى ، واستمرار على غير الصراط المستقيم !

كانوا يقولون من قبل :

﴿ إنْ هِىَ إلا حياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ ونحيا وما نحن بِمَبْعُوثين ﴾ ....، كانوا يقولون ذلك من غير أن يفلسفوا مقولتهم ، أو يؤطروها فى قالب نظرية علمية مدعاة .

كانوا يهزؤن من الرسل والأنبياء حين ينذرونهم بالبعث والنشور ، ويحذرونهم مغبة العبث والفجور ، والتنكر للعدل والحق الأزليين .

والحسرة أو الندم على ما فرطوا فى جنب الله ، وفى حق أنفسهم حين ركبوا متن الهوى ، واستغرقوا فى الكفر ، وأصروا واستكبروا استكباراً ..

هذه الحسرة رأى فيها بعض علماء التفسير أنها من أنفس الكافرين على أنفسهم ، قال « قتادة » فى معناها : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله ، وفرطت فى جنب الله ..

وقال غيره : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا مستهزئين .. ساخرين .. مكذبين .. جاحدين .

ولا ينفع الندم ، ولا تنفع الحسرة آنذاك !!! ولات ساعة مندم ..

ولكى لا تكون عقدة الندم والحسرة محطة لهم فى مسيرتهم الضالة على غير هدى وبصيرة ..، تأتيهم قارعة السماء لتوقظهم من غفلتهم .. وسباتهم .. وركونهم إلى شياطينهم ، فتقول لهم :
﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهم من الْقُرون أَنَّهُم إليهم لا يَرْجعُون ﴾ !!؟؟ ألم يَتَّعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين .. كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا من كرة ولا رجعة .. ولا سبيل ؟؟

أين قوم « نوح » و « عاد » و « لوط » وغيرهم !؟ وغيرهم !؟
﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُل فَحَقَّ وعيد ﴾

ثم تأتى قارعة أخرى ..
﴿وإن كُلٌّ لما جميع لديْنا مُحْضَرون ﴾

إنها خاتمة المطاف فى رحلة التكذيب والاستهزاء والحسرة .. فإذا الجميع محضرون !

نبعثهم .. نحن من مرقدهم ..، ونحضرهم نحن بين أيدينا ، ونحاسبهم نحن على ما قدمت أيديهم .. ثم نذيقهم عذاب السعير بما كانوا يفعلون .

ومع آية من أُبيد من الأمم والقرون ، وأهلكوا فما عادوا .. هناك آيات أخرى ، وعلامات وسمات ودلائل ، لعلَّها تذكر المكذبين المستهزئين من « قريش » فتردهم إلى الحق والصواب ..
﴿وآيَةٌ لهُم الْأَرْض الميْتةُ أحييناها وأخرجنا منها حَباً فمِنْهُ يَأْكُلُون . وجَعَلْنا فيها جَنّاتٍ فى نخيلٍ وأعْنابٍ وفجَّرْنا فيها من الْعُيُون . لِيَأْكُلُوا من ثَمرِهِ وما عَمِلَتْهُ أَيْديهِم أفلا يَشْكُرُون . سُبحانَ الذى خَلَق الأَزْواج كُلّها مِمّا تُنْبتُ الْأَرض ومن أَنْفُسهم ومِمّا لا يَعْلَمُون ﴾

آيةٌ حِسِّيَّةَ ظاهِرَةً ، لا مِراءَ فيها ولا جدال ..، الْأَرض الميْتة ..، الجامدة الهامدة ..، يَبْعثِ الله تعالى فيها الحياة ..

كيف ؟

يقول البارى عز وجل :

﴿ وترى الْأَرْضَ هامِدَةً فإذا أَنْزَلْنا عليها الماء اهْتَزَّتْ ورَبَتْ ﴾ تَفَكَّكتْ وتحلَّلتْ ذرات التراب التى كانت متماسكةً ملتصقة بفعل الجفاف .. وكأنها الصخر أو الحجر ، وهذا هو الاهتزاز .

ثم ربت .. انتفخت وانتعشت بفعل الماء المتساقط .

إنها ولا شك فى دور الحمل ، ومن بعده المخاض .. والوضع .. كالإنسان تماماً ، كالبشر .. وسبحان الله !! وتعالى عما يصفون ..

ويقول عز من قائل :

﴿ وجَعَلْنا من الماءِ كُلَّ شئٍ حىّ ﴾ .

وفى باب الماء سرحات وسرحات ، قد تمتد إلى عمق التكوين ...، ولا نخوض فى ذلك ، ونكتفى بالقول أن الماء أصل للحياة بكل وجودها ووجوهها .

لذا .. كان من المناسب هنا – جداً – فى معرض الحديث عن إحياء الأرض الميتة وإخراج الحب وجنات النخيل والأعناب .. أن يذكر الماء الذى هو الأصل ، فقال جل وعلا :

﴿وفَجَّرْنا فيها من العُيُون ﴾

أطلقنا الماء الحبيس فى جوف الأرض من مخازنه ، بقوة وعنف .. ﴿لِيأكُلُوا من ثَمَرِهِ .. ﴾ بِمَا أنتج تلاقى الماء بالأرض مع مكنون الحب والنبات ..

﴿وما عَمَلَتْهُ أيْديهم .. ﴾ بالجهد والتعهد والرعاية ..

﴿أفلا يشكرون ﴾ !؟ ، ويحمدون ربهم على ما أنعم عليهم ، بالإيمان به وطاعته ، والتصديق بكتبه ورسله ، بدلاً من التكذيب والسخرية والاستهزاء !؟

ذلك أولى لهم ..، لأنه بالشكر تكون الزيادة ..

﴿ لِئِن شكرْتُم لأزيدَنكُم ﴾

وأيضاً ..، فإن من يشكر .. يشكر لنفسه ، بعود الخير عليه ؛ ومن يكفر .. فإن الله تعالى غني عن العالمين .

سبحان الله .. الخير كله للإنسان ، أولاً وآخراً ..! فهل يدرك هذا ؟ وهل تنبهه (آية) الأرض الميتة .. (أحييناها) ..، من شروده وعناده وغفلته ؟

﴿ سُبْحانَ الذى خَلَق الأزَواج كُلُها مِمَا تُنبتُ الأرض ومن أنفُسِهم ومِمَا لا يَعْلمُون ﴾

إن كل عنصر حى فى الكون ، والكون كله حى ..، يقوم على الزوجية ..، الذكورة والأنوثة فى الأحياء من إنسان وحيوان ونبات ، والموجبية والسلبية فى الجمادات .. ذلك تقدير العزيز العليم ..

ازدواجية فى التكوين والحركة..

فى النبات المشاهد ، وفى العنصر البشرى الآدمى ..

ومما لا نعلم من خلق الله تعالى ، سواء على الأرض التى نحيا فوقها ، أو فى أرجاء الكون الذى لا حد له .

﴿ وآيَةٌ لهُم الَّلْيل نَسْلَخُ مِنه النَّهار فإذا هُمْ مُظْلِمُون . والشَّمْس تَجْرى لِمُسْتَقَّر لها ذلك تَقدير العزيز العليم . والْقَمَرَ قدَّرْناهُ منازلَ حتى عادَ

كالعُرْجُونَ القديم . لا الشمس ينبغى لها أنَ تُدْرك الْقَمر ولا اللَيْل سابقُ النَهار وكُلّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾

لِلْعقْلِ السويّ السليم ، والفكْر الثاقب الصائب .. أنْ ينحنَى ساجداً إجلالاً لله الخالق المدبِّر ..، فى وقفة تأمُّل واتعاظ .. إزاء هذه الآية الكونيَّة الكُبْرى .

الله سبحانه وتعالى ينقلنا من سبحة العقل فى موضوع الحياة والإحياء إلى آفاق الكون ليرى عظمة الإبداع فى الخلق والتقدير ، والتنظيم .

إلى الليل والنهار ..، إلى الشمس والقمر ..، إلى الظلام والنور ..، إلى القمر المتدرج فى المنازل .. ومع كل منزلة حالة ..، حتى يعود كالعرجون القديم ، كالقضيب الرفيع النحيل اليابس .. هلالاً دقيقاً ..، إلى الأفلاك التى وضعت فيها الكواكب بدقة وإحكام .. تدور وتدور .. ولا يطغى أحدها على الآخر ، فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر .. ولا العكس .. أيضاً .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿سَنُريهم آياتنا فى الآفاق وفى أَنْفُسهم حتّى يَتبيَّن لهم أنَّهُ الحقّ ﴾[(١)] .

نسلخ ..!

عند هذه الكلمة نريد أن نتوقف قليلاً .. لأن التعبير القرآنى له مدلوله ومنطقه وحكمته ..، كل حرف وكل كلمة ..

والتعبير بـ (السلخ) يشدنا إلى صورة الحيوان الذى يسلخ جلده بعد الذبح ..، ينزع عن البدن ..، والجلد غلاف خارجى وقشرة ، واللب هو الأصل ..، فكأن الليل هو الحقيقة والنهار هو الغلاف .. وكلاهما جسد واحد ..

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

وسواء كان التعبير عن السلخ يرتبط بحرف (عن) أو (من) ، فإنه اقتطاع وانتزاع ،

يقال : سلخت جلد الخروف (عن) بدنه ، ويقال : سلخت (من) عمرى كذا سنة ..

إنها .. أى الليل والنهار ، حركة فلكية ترتبط بمبدأ التكوين والخلق ، الله أعلم بها ..!

لكنها من حيث المشاهدة الحسية ، والمعاناة اليومية ، آيةٌ من آيات الله تعالى ، الذى جعل الليل لباساً وجعل النهار معاشاً ؛

والشمس تجرى ...،

لا تسير ولا تدور ..، بل تركض ..، وركضها كما يحدثنا علماء الفلك ، مع مجموعتها .. فى الفضاء اللانهائى إلى ما أسموه ببرج الجبار ، بسرعة هائلة رهيبة تتجاوز آلاف الأميال فى الساعة ..

وبرج الجبار محطة فضائية ..، وليس النهاية .. والغاية ، لأن مستقرها فى علم الله وحده .

وسواء القمر فى منازله ومطالعه ، ودرجاته ...، والشمس فى جريها ، والكون كله فى حركته ، كل ذلك تقدير العزيز العليم .

﴿وآيةٌ لهُم أنّا حَمَلْنا ذُرِيَّتَهُم فى الْفُلْكِ الْمَشْحون . وخَلَقَنا لهُم مِنْ مِثْلِهِ ما يركَبْون . وإن نَشَأْ نُغرِقْهُمُ فلا صَرِيخَ لهم ولا هُم يُنْقَذُون . إلّا رَحَمَةً مِنّا ومتاعاً إلى حين﴾ .

وآية أُخرى .. لعَلْهم يتذكّرون !

يتذكرون سفينة « نوح » – عليه السلام – وقصته مع قومه الذين كذبوه وسخروا منه ،

لم يكن البحر فى عهد « نوح » – عليه السلام – سبيلاً من سبل التنقل والضرب فى الأرض ، أو مورداً من موارد الرزق ..، فلقد كان حتى ذلك الحين عالماً مجهولاً بما فيه من طاقات وقدرات وإمكانات أودعها الله تعالى فى لججه وأعماقه .

فلما جاء أمر الله بإهلاك الكافرين المعاندين ؛ بالطوفان .. بالماء الذى هو أصل من أصول الحياة ..، أمر الله تعالى « نوحاً » – عليه السلام – بصنع الفلك ..، وكان « نوح » نجاراً – على رأى أكثر العلماء – ..

قال تعالى : ﴿ **وأصْنَعِ الْفَلكَ بأَعْيُننا وَوَحْينا ولا تُخاطِبْنِى فى الذين ظَلَمُوا** ﴾

منذ ذلك اليوم ، تكشفت للإنسان حقيقة من حقائق الناموس الكونى ..، وأصبح البحر جزءاً من مقامه على الأرض وحياته فوقها ، يسلك سبله ويرتاد أمواجه ، ويغوص إلى أعماقه ..
﴿ **لِتأكُلُوا مِنْهُ لحماً طرياً وتَستَخرجُوا مِنْه حِليةً تَلْبَسُونها** ﴾

والذى تحدثنا عنه شِقٌّ من (الآية) وجانب منها ، وهناك شقٌّ آخر ، هو خلاص المؤمنين ونجاتهم من العذاب الدنيوى ومن الهلاك بالطوفان ..

نجاة الذرية الآدميَّة التى كانَتْ مَبْدأ البشريَّة الثانية ..، (رحمة) من الله تعالى بهم ، حيث استجابوا لربهم وآمنوا برسوله ..، (ومتاعاً إلى حين) !! يتمتعون بما أفاض الله عليهم من خيرات ونعيم ، ورزق وافر كريم .

ولقد كان بمقدوره جل جلاله أن يغرقهم فلا يجدوا مغيثاً ولا منقذاً .
إن فى ذلك لآية لقوْمٍ يتفكَّرون ويتدبَّرون ؛

فاتعظوا يا معشر قريش بما سلف ، ولا تكونوا كالحُمُر المستنفرة فرت من قسورة .

﴿ وإذا قيل لَهُم آتَّقُوا ما بين أَيْديكم وما خلفكُم لعلَكُم تُرْحَمُون . وما تَأْتيهم من آية من آياتِ رَبِّهم إلّا كانُوا عَنْها مُعْرضين . وإذا قيل لهُم أنفقوا مِمّا رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمَنُوا أَنُطِعُم مَنْ لوْ يشاء الله أَطْعَمه إنْ أَنْتم إلّا فى ضلالٍ مُبين ﴾ .

لكنَّ « قريشاً » التى آسْتَمَرأتِ الجهالةَ وأَلِفَت الضَّلالة . واسْتَغْرَقت فى حَمْأة الكفر ، أَمْعَنَتْ فى جُمُوحها وشرُودِها عن الحق والهدى ، وتمادت فى التصدّى بالباطل تُريدُ أَنْ تَصْرَع بِهِ الحق ..

آذت رسول الله ﷺ ، وآذَتْ أتباعه بالضرب .. والحبس .. والتعذيب .. والإكراه ..، حتى القتل ، كما فعلت بـ« ياسر » و « سمية » ..

وكانت إذا ما أُنذرت بعذاب من الله تعالى ، شأن الأمم السالفة ، يأخذها أخذ عزيز مقتدر فيمحوها من الوجود ..

وكانت إذا ما حذرت مغبة ذنوبها السالفة والحاضرة بما ينتظرها من حساب وعقاب بين يدى الساعة ..

كانت تهزأ من كل ذلك ، وتستخف به ، لا ترعوى ولا تهتدى ..، بل تتحدى أحياناً !!

ولم يكن إنذارها وتحذيرها بالكلمة المجردة وحدها ..، بل مع آيات من عند الله تصدق رسوله « محمداً » - ﷺ - فيما يبلغ عن ربه ....،

لكن الإعراض كان ديدنها ومبدؤها ...

ركبت رؤوسها حمقاً وغروراً ، ونفخ « إبليس » فى قلوبها وأرواحها نفخته الكاذبة الشريرة ، فمضت معه على الطريق .

﴿ وما تأتيهم من آيةٍ من آيات رَبِّهم إلّا كانُوا عَنْها مُعْرِضين ﴾

ولقد كان من أصول التغيير للمجتمع القرشى الجاهلى ، التى جاء بها

الإسلام ، رفع الظلم والمعاناة ، وإحقاق العدل الاجتماعي بالتكافل والتضامن ، ليستوى مجتمع الناس على محجة بيضاء ، ليلها كنهارها ..، ولا تترسخ فى أعماق هذا المجتمع عوامل الفساد والاضمحلال ونذر الشر والزوال ..

دعوا إلى البذل والسخاء على طائفة عريضة من المحرومين والفقراء ..، فماذا كان الجواب ؟

قالوا : ﴿**أنُطْعِمُ مَنْ لو يشاءُ الله أطْعَمَه إنْ أنْتم إلّا فى ضلالٍ مُبين**﴾

كيف نعطى أناساً حرمهم الله ، ولو شاء لأعطاهم !

وأنت ترى – عزيزى القارئ – مدى السخف فى هذه الدعوى التى تحاول أن تستند إلى المنطق ..

تماماً كما قالوا ذات يوم فى الرد على قوله سبحانه : ﴿**مَنْ ذا الذى يُقْرِضُ الله قرْضاً حَسَناً فيضاعفه له**﴾

قالوا : يا أيها الناس .. استمعوا .. إن إله « محمد » فقير يطلب القروض !!

وتماما كما قالت اليهود ذات يوم أيضاً :

﴿**وقالت اليهودُ يَدُ الله مَغْلُولة .. غُلَّتْ أيْديهم ولُعِنُوا بما قالُوا بَلْ يداهُ مَبسوطتانِ يُنْفِقُ كيْف يشاء**﴾[1]

وهذه – لعمرى – منتهى العماوة عن آلاءِ الله تعالى فى الكون .. عن عطائه الذى لا ينفد .. ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ ، والرزق الذى يسوقه لكل حى من الأحياء ، حتى الدودة فى الصخرة ..

﴿ **فإنها لا تعْمى الأبْصار ولكن تعمى القُلُوب التى فى الصّدور** ﴾ .

---

(١) سورة المائدة من الآية ٦٤ .

إنَّ المنطق السَّليم يَجُرُّ إلى المعْتَقِدِ السليم .. حَتْماً .

ففى صدد هذا الموضوع تختلف رؤية السوى ورؤية الضال ، فالسوى يرى أن يده على الملك يد عارضة وليست أصيلة .. بعكس الضال .

وعلى سبيل المثال ...

إن خرجت من البيت أحمل مبلغاً من المال .. وأرتدى ثوباً يسترنى وأتجمل به ..، فلمن تكون الأثواب الأخرى المعلقة فى الدار ..؟ ولمن تكون بقية المال القابع ..؟! خصوصاً إذا ما طرأ حادث !!

وصدق الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه حين قال :
« يا آبْن آدم .. لَيْس لَكَ مِنْ مالكَ إلا ما أَكَلْتَ فَأَفنيت ، ولَبستَ فَأَبْلَيْت .. (ثم ماذا ؟) وَتَصَدَّقْتَ فأبقيت » .

هلا لاحظتم معى مطلع الخطاب ..!؟

إنه لابن آدم عامة ..، لكل البشر .. لكل الناس ..، وليس فيه اختصاص .

﴿ وَيَقُولُون متى هذا الوَعْد إن كُنْتُم صادقين . ما يَنْظُرون إلّا صَيْحة واحِدَةً تأْخُذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾

قلنا فيما سبق بأن المنكرين الكافرين ، لم يتوقفوا عند حدود التكذيب والهزء بالرسالة ، بل تجاوزوا ذلك إلى التحدى ..

فكانوا يقولون : **﴿ متى هذا الوَعْد إن كُنْتُم صادقين ﴾** !!

متى الساعة التى تتحدثون عنها وتنذرونا ، وتخوفونا بها ؟ متى ...!؟ أفصحوا إن كنتم صادقين .

وصيغة الجمع هنا لها دلالتها ..، فهى منطق الكافرين فى وجه أنبياء الله ورسله جميعاً ، منذ آدم « عليه السلام » إلى الخاتم « محمد » ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

﴿الله عِندَهُ عِلْم الساعة .. ﴾ ، بل علم كل الغيب ..، وليس لبشر على الاطلاق أن يعلم طرفاً من الغيب ، يستوى فى ذلك كل الناس ، مؤمنهم وكافرهم ..

وهذا هو التحدى الحقيقى !

﴿ما ينظرون إلا صَيْحةً واحدة ﴾

وينظرون بمعنى ينتظرون .

وهذه الصيحة هى صيحة الفزع كما عرفها علماؤنا ..، تأخذ كل الناس فجأة وبغتة ...

وهناك صيحتان أخريان : صيحة الصعق وصيحة البعث وصيحة الفزع هذه تأخذ الناس ﴿وهم يخصمون ﴾ .

إنها صورة ضوضاء الحياة وصخب الحركة .. والسعى .. فى القمة والذروة ، جدال فى الأسواق بين بيع وشراء ، وغدو ورواح .. وأقدام تطرق الأرض . ومعاول تضرب فى التربة .. وأفراح وأعراس .. ومآتم وأحزان .. ومهرجانات وتجمعات ..، ومدارس ومعاهد وجامعات تزخر بالمتعلمين والمعلمين ..،

هدير سيارات وعربات ...، وقطارات ..، وأزيز طائرات .. تمزق صدر الفضاء ، وبواخر تشق صفحة المياه .

وحيوانات تسرح وتمرح فى الغابات ..، وأمطار تهطل ..، وأنهار تتدفق .

كل أولئك (تأخذهم) الصيحة .. وهم فى خوض ..

تأخذهم !! فتملك عليهم أنفاسهم وحركتهم ، وتشلهم ..، قد جمدت عيونهم فى مآقيهم ، وانحبست أنفاسُهُم فى صدورهم .. وتوقف نبض قلوبهم ، وأضحوا التماثيل الجامدة .. حتى الأشياء تفقد معطيات استمرارها !!!..

يقال : فلان قد أخذ بالمنظر أو بالحدث ..، وذلك حين يفقد القدرة على التمييز .. ويبدو واجماً ..، قد اتسعت حدقتاه وفغر فاه وشلت حركته ..، فهو مأخوذ .

كنت ذات يوم فى زيارة لـ « الآستانة » – إسطمبول –، وصادف وجودى هناك ذكرى وفاة « أتاتورك » .

وحتى اليوم ، وبما خلفه هذا الطاغية من قسر وقهر على الشعب التركى المسلم ، ما يزال من قبره يرعب الناس ..
وما يزال يفرض وجوده من خلال اتباع غر .. سذج .. مفتونين .

كيف ؟

كنت فى الطريق لزيارة صديق ، على موعد بينى وبينه ..، وقبل أن أصل إلى مكتبه بمسافة قليلة سمعت صوت صفارة إنذار تلوى فى سماء المدينة ، فظننت سوءاً ..، وإن شيئاً ما قد حدث ..

نظرت إلى السماء .. ثم إلى الأرض ..
لقد توقفت السيارات عن الحركة ..، وكذلك المشاة ..، الجالسون قاموا وقوفاً ..، أصحاب المحال خرجوا إلى الأرصفة ..، المتحدثون سكتوا عن الكلام ..

سكون كأنه العدم ..

ووقفت لا أخطو خطوة شأنى شأن الناس ..

ومرت خمس دقائق ، وحال (الأخذ) آخذ بالناس ..، ثم عادت صفارة الانذار تطلق زعيقها ولكن بشكل متقطع إعلاناً بالأمان ، وعاد دولاب الحياة وعجلة الحركة إلى الدوران ..

فمضيت فى طريقى إلى صاحبى وصديقى ..، وعلمت منه السبب ، إنه اليوم .. والساعة .. والدقيقة التى مات فيها « مصطفى كمال » ..، والصورة التى تتكرر كل عام فى موعدها نوع من الوفاء .. والذكرى ..!

وقال صاحبى معلقاً :

– لا تعجب .. إنه (فرعوننا) !!

قلت : معك كل الحق ..،

ثم سرحت بذهنى قليلاً .. ونظرت عبر نافذة المكتب إلى البعيد ، فسألنى عما بى ، فقلت : تذكرت الصيحة بالحق تأخذ الناس وهم يخصمون ، يا حسرة على العباد ..!!

﴿ونُفِخَ فى الصُّورِ فإذا هُم مِن الأجْداثِ إلى رَبِّهم يَنْسِلُونَ . قالُوا ياوَيْلنا مِنْ بَعَثنا مِنْ مرْقدنا .. هذا ما وَعَدَ الرحمن وصَدَق المرْسلون . إن كانَتْ إلّا صَيْحةً واحدةً فإذا هُم جميعٌ لدينا مُحضرون . فاليَوْم لا تُظلم نَفسٌ شيْئاً ولا تُجزَوْنَ إلّا ما كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾

وبعد نفخة الصعق وصيحة الأخذ .. وذهاب الخلق ..، تأتى النفخة الثانية ، نفخة البعث والإحياء ..

وهى هنا محل البحث وموضع النظر ، ومحور الحديث كله ، إنها مجادلة الذين كفروا .. بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

إن الهدف العام من السورة هو إحقاق حقيقة البعث والنشور ..، وفى

طياتها وبين آياتها صور شتى .. كثيرة .. كلها تتجه إلى هذه الغاية وهذه الحقيقة ، سواء مباشرة أو تمثيلاً وتقريباً .

ففى مطلعها ، وبعد بيان أحقية رسالة « محمد » ﷺ إلى الناس كافة .. وإنذار الكافرين النافرين ، وتصويرهم وقد عموا .. وصموا وسدوا بالأوثاق الشيطانية والأغلال الإبليسية فهم مقمحون ، ولن ينفع فيهم إنذار ولا وعيد ..

بعد هذا التمهيد ، يقول الحق جل وعلا :

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحيِي المَوْتى .. ﴾

ثم يأخذ فى التمثيل والتقريب ،

﴿وأَضْرِب لهُم مثلاً أَصْحاب الْقَرية .. ﴾

ويحكى القصة ..

وقبل الفراغ منها وتمامها .. وصيحة العذاب والعقاب التى أخذت أهل القرية بما كذبوا .. فأخمدتهم وجعلتهم أثراً بعد عين .. تبرز صورة ..، صورة الداعى إلى الله والنذير ..، الذى قال لهم : **﴿إِنى آمَنتُ بربَكُم .. ﴾ فَقَتَلُوهُ** بَغياً .. وظلماً .. وعدواناً .

تبرز الصورة فى إشراقها العلوى من خلال قول الله تعالى :

﴿ قيل آدْخُلِ الجنَّة ﴾ .. ، لقد حق عليه القول بالموت و .. الشهادة على أيديهم ..، وحقت له الجنة ....، غفراناً وتكريماً **﴿بما غَفَر لى ربّى وجَعَلنى من المكرمين ﴾** .

فإيحاء الصورة ينبئ بإحيائه وإدخاله الجنة ..

أما هم فقد أخمدوا بالصيحة ، إلى حين نفخة الصور ....، إلى يوم يبعثون فيه مع اضرابهم وأمثالهم ، ممن سبق ولحق ، ليقولوا ...

﴿ يا وَيْلنا .. مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقدنا .. ﴾ ؟؟

لقد أخذوا مرتين ، مرة وهم يخصمون .. ومرة وهم خامدون .

يا ويلنا ...!!

قيل : الويل : العذاب الشديد ، وقيل : واد فى جهنم ، وقيل غير ذلك .

والملاحظ أنهم هم الذين نادوا على أنفسهم بالويل والثبور ..، ما قيل لهم : ويلكم ..، ولكن قالوا : يا ويلنا ..، إنها لحظات الإدراك بعد طول جهالة واستغراق ..، لا تدفع ضراً ولا تمنع عقاباً ..

تماماً كالذى حدث لـ « فرعون » موسى – عليه السلام –؛

﴿حتَّى إذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قال آمَنْتُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا الذى آمَنَت بِهِ بَنُو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ .

وكان الرد من الله تعالى :

﴿آلآن وقد عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ المُفْسدين﴾ . -

وهذا فى الحياة الدنيا ..، فما بالك وقد تجاوزت رحلة حياة الكافرين النافرين الخط الأحمر ...، من زيف الدنيا وزخرفها إلى حقيقة الأبدية ..، هناك – قطعاً – لا مكان إلى توبة أو إنابة ..، فقد حق القول على الكافرين .

و **﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحمن وصَدَق المرْسَلُون﴾**

هذا الذى كنتم به تكذبون ، وتجادلون وتفرطون ، وترتعون ولا ترعوون ..، وهذا هو الوعد الحق ..

لقد وعدكم شيطانكم ومناكم بالأمانى ، وغركم ..، فأخلفكم ..، ووعدتكم وتوعدتكم ..، وأنذرتكم ناراً تلظى ..، وبشرتكم برحمة ومغفرة ، على لسان أنبيائى ورسلى ، فأبيتم إلا كفوراً ونفوراً .

﴿الشَيْطَانُ يَعدُكمُ الفقْر ويأمُركمْ بالْفَحْشاء واللهُ يَعِدُكمْ مَغْفِرةً مِنْه وفَضْلاً واللهُ واسِعٌ عليم ﴾(١)

﴿إن كانَتْ إلّا صَيْحة واحِدَةً فإذا هُم جميعٌ لديْنا مُحْضَرون ﴾

جميعٌ ..!!

هل لعقل بشرى أن يتصور هول المحشر !!

مهما قيل فيه من تشبيه وتمثيل ، ومهما قيل فيه من وصف ..، يظل قاصراً وبعيداً جداً عن الحقيقة ..

واكتفى بهذا .

﴿ مُحْضَرون ﴾

ومع كل نفس .. سائق وشهيد .!! من الملائكة ..

فإذا كان عدد الخلق لا يحصى .. إلا من قبل الله عز وجل ، ومع كل واحد سائق وشهيد ..، فكم يضم الموقف ؟ وكيف هو ؟ وماذا من شأن عددية الملائكة ؟

قد تخطر فى البال ، من قبيل مراودة الشيطان ، هذه التساؤلات ، فى توهم وشك .. وتطاول ، وإذا بالجواب من عند الله تعالى قارعة توقظ الغافلين وترد الشاردين ، وتكبح جماح المفترين .

﴿ وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلّا هُو ﴾ ، وسبحان الله العظيم .

﴿ فالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيْئاً ولا تُجْزون إلّا ما كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾

اليوم الحق الذى يعتدل فيه الميزان ، بعد أن عبثت به الأيدى فى الحياة الدنيا ..، وجنحت به طغياناً واستبداداً وسوء تصرف وتقدير ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

فى اليوم الدنيوى يتواجد الخير والشر ..، والنور والظلام ، والغنى والفقر ..، والسرور والحزن ، والفرح والأسى ..، والعدل والظلم ..

أما اليوم الحق .. فهو العدل المحض ، قد طويت فيه صفحة إرادة الإنسان ، الظلوم الكفور فى الاختيار والتصرف ، التى منحها له الخالق القادر وتجلت الإرادة المطلقة ..، إرادة (العدل) (اللطيف) .

فى اليوم الدنيوى تضطرب مقاييس الجزاء والعمل ، قد يأتى المرء خيراً ويلقى شراً ، قد يأتى طيباً ويلقى مرارة .

أما اليوم الحق فلا تجزون إلا ما كنتم تعملون ..

﴿فَمَنْ يَعْمَل مِثقال ذَرَّةً خيْراً يَرَه . ومن يَعْمل مِثْقال ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾ .

لا بخس ولا ظلم ولا رهق .

ولا يظلم ربك أحداً ..

يقول سبحانه وتعالى فى سورة (الكهف)[1]

﴿وعُرِضُوا على رَبِّك صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونا كما خَلَقْناكُم أوّل مَرّة بل زَعَمْتُم أَنْ لَنْ نجعَلَ لكُم مَوْعدًا . ووُضِعَ الكتابُ فَترى المُجرمين مُشفِقين مِمَا فيه ويقولون يا وَيْلَتَنا ما لِهذا الكتاب لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها وَوَجَدوا ما عَمِلُوا حاضِراً .. ولا يَظلِمُ ربُّكَ أَحداً .. ﴾

وصدق الله العظيم

﴿إنَّ أَصحابَ الجَنَّةِ اليوم فى شُغلٍ فاكهون . هُمْ وأَزْواجُهُم فى ظلالٍ على الأرائك متكئون . لهُم فيها فاكهةٌ ولهُم ما يَدَّعُون . سلامٌ قوْلاً من رَبٍّ رحيم ﴾

﴿إنّ أصحاب الجَنَّة الْيوَمَ .. ﴾

---

(١) الآية ٤٧ ، ٤٨ .

إنه يوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل !!؟

﴿إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذاباً . جزاءً من ربك عطاء حساباً . رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق .. ﴾[1]

فأصحاب الجنة فى شغل فاكهون ..

فكاهة وفاكهة ..، مرح ونعيم ..، وسعادة غامرة ..، هذا شغلهم ، لا عبث ولا مجون ولا شهوة قاتلة ، لا تكالب ولا تغالب ، لا طمع ولا حسد ولا حقد ..، صافية نفوسهم وأرواحهم صفاء العين الجارية ..، والسلسبيل الرقراق ..

هم وأزواجهم فى ظل ظليل ، لا حر ولا زمهرير ، فى استرخاء مريح على الأرائك متكئون ..، قد ذللت لهم القطوف من كل ما تشتهيه النفوس وترغب فيه ..

كل أمانيهم حقائق ..، ليست أحلاماً ولا سراباً خادعاً . ويكفيهم السلام من رب العالمين يغشى وجودهم كله .

إن صور النعيم لأصحاب الجنة فى القرآن الكريم كثيرة متعددة ، مبثوثة فى أكثر من سورة وأكثر من آية ..!

إنها صور مرسومة بالكلمات ..

فقط .. واحدٌ من ذرية « آدم » – عليه السلام – عاينها بأم العين ، فرآها من وراء حجب الزمان والمكان ..

واحد كرمه الله تعالى بذلك فأطلعه عليها مشاهدة حس ..، فى ليلة هى

(١) سورة النبأ الآيات ٣١ : ٣٩ .

من أعظم الليالى المباركة التى فاقت الزمن كله قدراً وقيمة ..، ليالى « محمد بن عبد الله » – صلوات الله وسلامه عليه ..

ليلة مولده ..

وليلة مبعثه ..

وليلة إسرائه ومعراجه ..

رآى « محمد » ﷺ الجنة .. فقال عنها :

« فى الجنَّة ما لا عيْنٌ رَأتْ ولا أُذُنْ سَمِعَتْ ولا خطَرَ على قلْب بَشَر »

وهذا حق ، لا مِرية فيه ولا شك ..

فالنعيم الدنيوى ، أى نعيم ..!! ، يزول عنك ، أو تزول أنت عنه ..، لا محالة ..، أما النعيم الأخروى .. نعيم الجنة فخالد مقيم .. فهل هذا يخطر على قلب بشر له مقاييسه وله حدوده وله معاييره .

إن الإنسان بطبعه وتكوينه متلون .. يحب التغيير .. فلو أن متعة من متع الدنيا .. حتى الراحة والسكون والهدوء يحس معها الإنسان بالملل ...، ويسعى إلى التغيير ...

أما نعيم الآخرة ، السرمدى الأبدى ...، فلا ملل معه ولا سأم ولا ضجر ... فهل هذا يخطر على قلب بشر ..؟ وصدق رسول الله ﷺ .

﴿ وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون . ألَمْ أعْهَدْ إليْكُم يا بنى آدم أنْ لا تعبُدوا الشَّيْطان إنه لكم عَدوٌ مُبين . وأنَ اعْبُدونى هذا صِراطٌ مُسْتَقيم . ولقد أضَلَّ مِنْكم جبلاً كثيراً أفَلَمْ تكُونوا تَعْقِلُون . هذه جَهَنَمُ التى كُنْتُم توعَدون . اصْلَوْهَا اليوْم بما كُنْتم تَكْفُرون . اليوْم نَختم على أفواههم وتُكلمُنا أيديهم وتَشْهَدُ أرْجُلُهم بما كانوا يكْسِبُون . ولو نشاء لَطَمَسْنا على أعْيُنِهم فاسْتَبَقُوا الصراط فأنى يُبصِرُون . ولوْ نَشاءُ لمسخناهم على مكانَتِهم فما استطاعوا مضِياً ولا يَرْجِعُون ﴾

﴿وامتازوا اليْوم ﴾

إنه – أيضاً – يوم الفصل ..!

﴿إنَّ يَوْم الْفَصْل كان ميقاتاً . يَوْم يُنْفَخُ فى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أفواجًا . وفُتِحَتِ السماء فكانَتْ أبْوابًا . وسُيِّرتِ الجبالُ فكانَتْ سراباً . إنَّ جَهَنَّم كانَتْ مِرْصاداً . للطاغين مآبا . لابثين فيها أحقاباً . لا يَذوقوْنَ فيها بَرْداً ولا شراباً . إلَّا حميماً وغسَّاقاً . جزاءً وِفاقاً . إنُهم كانُوا لا يَرْجُون حساباً . وكذَّبوا بآياتنا كِذّاباً . وكُلَّ شئ أَحْصَيناهُ كتاباً فذُوقوا .. فلَنْ نزيدكُم إلّا عذاباً ﴾[1]

إمتازا .. تميزوا ..

وليس الامتياز هنا بمعناه اللغوى العرفى الذى درجنا عليه ، بمعنى الرفعة والسمو ، والخاصية التفوقية ..، ولكنه بمعناه اللغوى الأصلى ، أى : انفصلوا ..

وماز الشئ يميزُهُ ويميزه .. أى فصله عما لا يشاكله فى الخاصية ..

أيها المجرمون !!

نسبهم إلى الإجرام لاعتدائهم على الحق وتجاوزهم وظلمهم ..، ونقضهم لمبدأ التعايش السليم بينهم وبين ما وضع لهم من أسباب الحياة فى الكون ..

وكانت أول جناياتهم على أنفسهم حين دسوها .. حين تنكروا لعقولهم وأطاعوا شهواتهم ..

﴿ ونَفْسٍ وما سَوّاها فَأَلْهمها فُجورَها وتَقْواها . قد أَفْلَحَ من زكَاها وقد خابَ مَنْ دَسّاهَا ﴾[2] .

وتهون كل جرائم الإنسان أمام جريمته على نفسه !!

---

(١) سورة النبأ الآيات ١٧ : ٣٠ .

(٢) سورة الشمس الآيات ٧ : ١٠

﴿ أَلَمْ أَعْهَد إلَيْكم يا بنى آدم ... ﴾

وبالرجوع إلى قصة « آدم » – عليه السلام – نتبين هذا العهد ؛ قال تعالى فى سورة (طه)[1]

﴿ ولقد عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قَبْل فَنسِيَ ولم نَجِدْ له عزماً . وإذ قُلْنا للملائكة آسجُدوا لآدم فَسَجدوا إلّا إبليس أَبى . فَقُلْنا يا آدم إن هذا عدوٌّ لك وَلِزَوْجِك فلا يَخْرِجَنَّكُما من الجنَّة فَتَشْقى . إنَّ لَكَ أن لا تجُوعَ فيها ولا تعرى . وأَنك لا تظمأُ فيها ولا تضحى . فوسْوسَ له الشيطان قال يا آدم هَلْ أدُلُك على شجرة الخُلْد ومُلْك لا يبْلى . فَأَكَلا منها فَبَدَتْ لهما سَوْآتُهُما وطَفِقا يخصِفَانِ عليْهما من وَرَق الجنْة وعصى آدَمُ رَبَّهُ فغوى . ثم آجْتباهُ رَبُّه فتابَ عَلَيْه وَهَدَى ﴾ .

﴿ ولَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُم جبِلًا كثيراً أَفَلَمْ تكُونوا تعْقِلُون ﴾ !!؟؟

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لهُم كَم أَهْلكْنا قَبلهم من الْقُرونِ يَمْشُونَ فى مساكِنِهم إنَّ فى ذلك لآياتٍ لأُولى النُّهى ﴾[2]

أين عقولكم فى استقراء التاريخ ؟ أين أوعية استيعابكم للماضى بكل ما يحفل من معطيات وعبر ودروس ؟

أفلم تروا جبلاً كثيراً وأمما عديدة نقضت عهد عبوديتها لله تعالى ثم عبدت الشيطان من دونه ، فأوردها موارد الهلاك ..، ثم جاءها أمر الله بالعذاب الشديد فى الدنيا ..!

أولئك الذين أخذهم الطوفان ، والذين أهلكتهم الصيحة ..، والذين بادوا بالصاعقة ..، والذين جعلت ديارهم عاليها سافلها ..!! ولعذاب الآخرة أشد ..!! وأبقى !!

---

(١) الآيات ١١٥ : ١٢٢ .

(٢) سورة طه الآية ١٢٨ .

لقد عهدت إليكم يا بنى آدم بـ (الصراط المستقيم) الذى لا عوج فيه ولا انحراف .. ولا انجراف ..،

عهدت إليكم بالنور .. وبالضياء .. بالوضوح فى الرؤية ، وحذرتكم أن تخبطوا مع الشيطان فى دياجير الظلمة ... فلا تدرون إلى أين المسير .

﴿الله ولىُّ الذين آمنوا يُخرجُهُم من الظُّلماتِ إلى النُّور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ ..

﴿هذه جَهَنَّم .. التى كُنْتُم تُوعَدُون .. ﴾

لقد كذبتم بآياتى .. وحاربتم رسلى .. وكفرتم بى .. وأصررتم إصراراً ...، وظننتم ظن السوء أنكم غير مبعوثين ، فلا حساب ولا عقاب .. لقد قلتم زوراً وبهتاناً : ليس من جنة ينعم بها المتقون ، وليس من جهنم يعذب بها الكافرون والمنافقون والظالمون ..

فهذه .. هى ..!

ترونها عياناً بياناً ...، تلظى وتستعر ..، وتتوقد وتلتهب .. فـ **﴿ اَصْلَوْها الْيَوْم بما كُنْتُم تكْفُرون ﴾**

ذوقوا عذابها ونَصَبَها ، وحريقها ولَهَبَها ..

وأى عذاب !!!

وتتوالى فى القرآن الكريم ، - أيضاً - فى أكثر من سورة وفى أكثر من آية صور العذاب المهين فى جهنم .. (أعاذنا الله منها بفضله ورحمته وكرمه) ...، آمين .

﴿ اليَوْم نَخْتِمُ على أَفْواهِهِم وتُكلمنا أيديهم وتَشْهَدُ أَرْجُلهُم بما كانوا يكسبون ﴾

نختم .. على أفواههم .
وتكلمنا .. أيديهم .
وتشهد .. أرجلهم .

نختم اليوم على أفواههم التى كانت ترجماناً لما يجيش فى صدورهم من نزغات الشيطان ، وأسماعهم التى كانت مستفرغاً لوسوسته وأباطيله وافتراءاته على الله تعالى ، وأبصارهم التى كانت مرآة تعكس مرائى الفحشاء والضلالة ..، عميت عن النور وألفت الظلمة ..، أعرضت عن آيات الله فى الوجود والكون والذات البشرية واتبعت الهوى ..، عميت عن الصراط المستقيم فى الدنيا فحشرت على حالها يوم الفصل ..

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِى فإن لَهُ مَعيشةً ضَنْكا ونَحْشُرُه يَوْم القيامة أَعْمى . قال رَبِّ لم حَشَرْتنى أعْمى وقد كُنْتُ بصيراً قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليَوْم تنسى ﴾[1] .

إنه الجزاء من جنس العمل .. وإنها الاستمرارية ..

ألم يقل الله تعالى ، وقوله الفصل :

﴿ إنَّ السَّمْع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عَنْه مسؤولا ﴾ !!!؟

والختم كما هو معروف ومألوف يحمل معنيين : النهاية والتوثيق .

فالمعنى يوحى بأن عهد (ثرثرة) اللسان قد انتهى وولى ، وحصل التوثيق بالختم .

﴿وتُكلمُنا أيديهم .. ﴾

أيديهم التى كانت أداة التنفيذ ووسيلة الفعل ، لما كان يعتمل فى النفوس من سوء وما يحيك فى الصدور من إثم ..!

---

(١) سورة طه الآية ١٢٦ .

لقد خرج الأمْر عن حَدَ الظَن والنُطْق إلى دائرة الْفِعْل ..، وأَكْثره – بل كُلُّه – باليد ...، فإذا ما خرست الألسنة عن الثرثرة والهراء تحت ضغط عوامل الجانب السيئ القاتم فى النفس الإنسانية كانت اليد هى أداة التعبير والبيان .. فتنطق .. وتتكلم .. بأمر الله عز وجل ..، وما عليها إلا الصدق ، من غير مواربة ولا مداورة ..

﴿ وتَشهَدُ أَرْجُلُهم بما كانُوا يكسبون ﴾

يقولون فى المحاكمات : الاعتراف سيد الأدلة

فإذا لم يعترف المتهم .. وأنكر ما قدمت (يداه) ..، كان لابد من القرائن والشهود ..، القرائن التى تدل على حصول الجريمة أو الجناية منه ..، أى فعله وتصرفه ..، وأول ما يفعله المحققون ورجال الأدلة الجنائية هو رفع البصمات ..!!

والبصمات هى آثار بنانه ..، وليس فى بنى آدم على كثرتهم التى لا تحصى .. رسوم بنان تشبه الآخر !!!

ألا يشدنا هذا إلى قول العلى العظيم فى محكم كتابه الكريم فى الرد على منكرى البعث ،

﴿أَيَحَسب الإنسانْ أَنْ لَنْ نجمع عِظامه . بلىٰ .. قادرين على أَنْ نُسَوِّى بنانه ﴾

سبحانه وتعالى عما يصفون !!

ولتوكيد الفعل من المتهم ، الذى توفرت القرائن على إدانته ، يؤتى بالشهود من ثم ..، ليكون الحكم أدعى إلى الحق والتوثيق ؛ من غير ظلم أو شبهة ظلم والشهود عادة وعرفاً من القريبين ..

سواء من الجانى أو المجنى عليه أو من الحدث ..، الذين رأوا وعاينوا ..، والكلمة تفصح عن نفسها .

وليس أقرب إلى الإنسان من ذاته وبدنه ..

فبعد يده التى كانت وسيلة التنفيذ وأداة الفعل ، والجارحة التى ترجمت خواطره وأقواله ، هناك رجله التى سعى بها .. وتحرك .. ومشى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ..

ومن أعظم الصور وأشدها تأثيراً وإثارة ، فى موقف يوم الفصل هو خطاب الاستعطاف والاسترحام .. والعتاب ، بين نفوس الكافرين وبين جوارحهم .

الذين يقولون :

﴿وقالُوا لجُلُودِهم لِمَ شهِدْتُم عَلَينا .. ﴾ ؟

ويأتى الرد المفحم :

﴿ قالوا أنطقنا الله الذى أنطَقَ كُلَّ شئٍ وهُــوَ خلَقَكُــمْ أوّل مرَّةٍ وإليْه تُرْجَعُون ﴾(١)

وصدق الله العظيم

﴿ ومَنْ نُعمِّرْهُ نُنَكِّسْه فى الْخلْقِ أفلا يَعْقِلُون . وما عَلَّمْناهُ الشّعْر وما يَنْبغِى له إنَ هُو إلّا ذِكْر وقُرآن مُبين . ليُنْذِر مَنْ كان حيّاً ويحِقّ القوْلُ على الكافرين ﴾ .

يقول الإمام « ابن كثير » – رحمه الله – :

(يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره ، رد إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط ، كما قال تبارك وتعالى : **﴿ الله الذى خَلَقَكُم من ضَعْفٍ ثم جَعَلَ من بَعْدِ ضَعْفٍ قُوّة ثم جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفاً وشيْبة يَخْلُقُ ما يشاء وهُوْ العليم القدير ﴾**(٢) .

---

(١) سورة فصلت الآية ٢١ .

(٢) سورة الروم الآية ٥٤ .

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لكيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئاً ﴾ .

والمراد من هذا – والله أعلم – الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار .. ولهذا قال – عز وجل : ﴿ أَفلا يَعْقِلُون ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة .. ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ..، وهى الدار الآخرة) .

يقال : نكس الشئ ، جعل أعلاه أسفله ، أى فى وضع عكسى يفارق به القاعدة .

فالإنسان فى أوج رجولته ونضارة حيويته يملأ وجوده حركة ونشاطاً وإنتاجا ، وكأنه قد بلغ القمة والذروة صعوداً ، ثم يبدأ الانحدار والانتكاس من أعلى إلى أسفل فى عودة إلى الضعف الذى بدأ منه ، إلى الطفولة !! شكلا ومضموناً ..

خطاه وئيدة ، وقد يتكئ على عصا ..، وأطعمته ومآكله محدودة معدودة ..، إلى آخر ما هنالك فى التآكل الجسدى .

هذا من ناحية الشكل ، أما من ناحية المضمون .. فهذر فى التفكير وهراء فى التدبير وهذيان فى الكلام ، و (تهتهة) وتعثر .. وغفلة ونسيان !!

وقلائل جداً أولئك الذين يحتفظون ببعض حيويتهم ونشاطهم ، البدنى والذهنى ، وليسوا قياساً ، لأن المعول على الأكثرية الساحقة .

أليست هذه نكسة فى الخلق !؟ أفلا تعقلون !!؟

﴿وما عَلَّمناهُ الشعْر وما يَنْبَغِي لهُ إنْ هُوَ إلّا ذِكْر وقُرآنٌ مُبين ﴾

روى « الشعبى » ، قال :

(ما ولد « عبد المطلب » ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر .. إلا رسول الله ﷺ) .، وهذا حق وصدق إذ لم يكن الشعر فى طبعه .. لا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته ، ولم يحفظ - ﷺ - بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زجفه (أى قدم وأخر فى الكلمات) ، أو لم يتمه .. وكيف يتسنى له الشعر والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وما عَلَّمناهُ الشِّعْر .. وما ينبغى له ﴾

وكيف ينبغى له (والشعراء يتبعهم الغاوون) وما يتبع رسول الله ﷺ إلا العاقلون المهتدون !؟ والشعراء **﴿أَلَمْ تَرَ أنهم فى كُل وادٍ يَهيمُون . وأَنَّهُم يَقُولُون ما لا يَفعلون ﴾** ، وما هامَ رسولُ الله ﷺ فى وادٍ ، وما فَعَلَ إلّا ما قال ..

أولئك مذمومون .. ، وهو « محمد » ﷺ الممدوح المحمود .

يقول أحد الشعراء الجاهليين :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية   هتكنا حجاب الشمس أو سفكت دما

إنه ليس بين الواقع وبين (أكذوبة) هذا الشاعر أدنى صلة ، ولا ذرة من حقيقة .

أما تمثله ﷺ بالشعر أحياناً ، طرفاً من بيت .. أو استماعه إلى « الخنساء » واستزادتها من الشعر بقوله : هيه يا « خناس » ، أو « حسان بن ثابت » أو «كعب بن مالك » أو « عبد الله بن رواحة » ..، فقد كان شعرهم حقاً وصدقاً لا خيال فيه ، ولا هياماً فى أودية الجهل أو إغراقاً فى الكذب .. على النفس وعلى الناس . حتى إن « حساناً » لقب بشاعر الرسول ﷺ .

وحتى إن رسول الله ﷺ كان يقول لـ « حسان » حين كان يدافع بشعره عن الرسول والرسالة متصدياً لشعراء قريش وغيرهم : قل وروح القدس يؤيدك ..

﴿ إن هُوَ إلّا ذِكْر وقُرآن مُبين ﴾

ليس فيه ما يَدَّعون من الشعرية على الله تعالى ، بل هو كلامه سبحانه ، بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره .

وغرضه ﴿ **لِيُنْذِر مَنْ كانَ حَيَّاً** ﴾ .. حيَّ القلب ، مستنير البصيرة ، ﴿ **ويحِقّ القوْل على الكافرين** ﴾ بالعذاب المهين ، فى الدنيا والآخرة .

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنا لهُم مما عَمِلَتْ أَيْدينا أَنْعاماً فَهُمْ لها مالِكون . وذَلَّلْناها لهم فَمِنْها ركوبُهُم ومنْها يَأْكُلُون . ولهُم فيها منافِعُ ومشارِبُ أفلا يشكرون . واتخذوا من دُونِ الله آلهِةً لعلَّهُم يُنْصَرون . لا يستطيعُونَ نَصْرَهم وهُمْ لَهُم جُنْدٌ مُحْضَرون . فلا يَحُزنْكَ قَوْلَهُم إنّا نَعْلَمُ ما يُسرّون وما يَعْلِنُون ﴾

ونعود إلى آيات الله تعالى فى الخلق ..

يقول سبحانه :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنا لهُم مِمَا عَمَلتْ أيدينا أنعاماً فَهُمْ لها مالِكُون ﴾

أو لم يروا ..!!؟

يخاطب الله جل جلاله فى المعاندين المكابرين حس المشاهدة ، الذى يظل مبتوراً وقاصراً إن لم يعكس (الصورة) على صفحة القلب وميزان العقل ، ليدرك حقيقة وجوده وموقعه من هذا الكون ، ورسالته فيه ..،

ذلك ، من أجل أن لا يظل سطحياً هوائياً ، شأنه شأن الأنعام التى ضربت له مثلاً فى الخلق ..، أو أضل سبيلاً !!

والأنعام .. التى جاء ذكرها هنا فى معرض المثل ، فى آية من سورة سميت بها إحدى سور القرآن الكريم .. الطوال..، ولذلك مدلوله ومعناه لقد تعودنا أن نسمى الأبقار والماعز والضأن ، والجمال والبغال والحمير ، وغيرها .. حيوانات أليفة ..، تركن إلى الإنسان وتألف العيش معه ، والحياة بقربه وكنفه ، مع أنه يدجن ما يأكل منها ويسمنه ..، ويذبحه ويأكله ..، أو يستخدمه فى التنقل وحمل الأثقال .

إن فى ذلك لمفارقة تستدعى التفكير والتأمل .. وإن فى ذلك لآية ..، إنها (تسخير) من الله عز وجل ..، فيه تكريم وتعظيم للإنسان ، وتيسير لحياته على ظهر الأرض ..، الحياة التى يفترض أن تكون متجاوبة مع الخالق سبحانه بالشكر والحمد والعرفان ، لا بالكفر والجحود والنكران .

أنعاماً ..!

سبق وقلنا عن التعريف بهذه الحيوانات بأنها أليفة ..، والكلمة تحمل معانى الود والعطف واللين والموادعة ..، وجماع ذلك يندرج تحت عنوان النعومة ..، نعومة التعاطى والتعامل .. فهى بحق أنعام ..

وكل أولئك تدبير وتقدير ، من العزيز العليم ، فهو الذى أصل فيها تلك الغريزة **﴿وذللناها لهم﴾**

﴿ فَهُمْ لها مالِكُون ﴾

مِلْك الانْتفاع بكل ما قدر الله فيها من وجوه المنفعة ، من لحومها وعظامها ، وشعورها وأوبارها وجلودها وقرونها .. الخ ، أو ما قدر فيها من قوة تحمل على قضاء المصالح فى الركوب وحمل الأثقال والحرث .. وغير ذلك .

ورغم التطور فى حياة الإنسان ، والاستعاضة بالآلة فى كثير من مواقع العمل عن الدواب ..، فإنها ما تزال وسيلة فى مجالات أخرى ، وستبقى !!

﴿ وذَلّلناها لهُم فَمِنْها ركُوبهم ومِنْها يأكُلون . وَلَهُم فيها منافِعٌ ومشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُون ﴾

أفلا يشكرون !!

إن أول وجوه الشكر (معرفة) المنعم قبل النعمة ..؛ معرفة الخالق سبحانه ..، معرفة قدره جل جلاله ، معرفة عزته وقوته ورحمته ..، وإيلاء المعرفة حقها بالعبادة والطاعة !

لكن الكافر غير الشاكر ..، غير العابد الحامد ..

فلو أن فيه مسكة عقل أو ذرة تفكير سوى سليم .. لما جنح عن الصراط المستقيم ، وآلى على نفسه أن يكون عبداً للشيطان من دون الرحمٰن !!

هذا الكافر وأمثاله :

﴿ آتخذوا من دونِ الله آلهةً لعلَهُم يُنْصرون ﴾

آلهة كانت فيما سلف ومضى من الأزمان تتمثل فى أنصاب وأوثان ، وأحجار وأشجار ، ومظاهر قوة أودعها الله فى الكون ، كالشمس والنار وغيرهما ..

وأشخاص من البشر أيضاً ، كفرعون ومن لف لفه ، ونسج على منواله ولئن قدر للإنسان (الكافر) أن يتحول عن كل تلك الزيوف ويهجرها ، مع تقادم القرون والدهور ، إلا أنه ظل أسير عبادة الشيطان ، وفى صور متجددة رأى فيها - وهماً وخداعاً - أنها تقدم وتحضر ..!!

﴿ لعلَّهُم يُنْصَرون ﴾ !!

إن حقيقة ظاهرة الضعف فى الذات الإنسانية والكيان البشرى لا مجال لانكارها أبداً ، ولا يكابر فيها إلا جاهل ..

فالإنسان من خلال إحساسه بـ (الضعف) يعول على الأقوى يستنصر

به ، ويستعينه ..، ومن هنا كانت المفارقات فى التصورات البشرية من يكون الأقوى !؟

قال بعضهم عبر التاريخ ، ومن زمن بعيد ، أنهم هم الأقوى ، إذ قالوا :
﴿ من أَشَدّ مِنّا قُوّة ﴾ !؟
وقال غيرهم أنه صاحب السلطان .. والحكم ..، وأنه يحيى ويميت ، كما قال « النمرود » لـ « إبراهيم » – عليه السلام –:
﴿أنا أُحْيِى وأُميت ﴾

وقد تلاقت مقولة هذا « النمرود » مع مقولة شعبه وقومه ، تماماً مثل « فرعون » حين ﴿آستخف قومه فأطاعوه ﴾

ولقد كان من نتائج ذلك ، انه كان يردد فى غباء وخواء ، واستكبار عن الحق واستعلاء : ﴿ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ ..

إن الرد الذى أفحم به « إبراهيم » – عليه السلام – (النمرود) ما يزال قائماً شاهداً ، فى أم الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

قال « إبراهيم » – عليه السلام –
﴿ فإنّ الله يأتى بالشَمْسِ من المشرِق فَأْتِ بها مِنَ المغْرِب ﴾ ؛ فماذا كان من شأن هذا السخيف الضعيف ، الذليل المهين ..؟
﴿فَبُهتَ الّذِي كَفَرَ ﴾

هذا الشاهد القائم ، المستمر أبداً ..، ما يزال إلى نهاية الوجود حجة على الكافرين وعلى كل من يستنصر بغير الله جل وعلا ..،

وهذا الشاهد ليس كلاماً يردد خالياً من المضمون ، أو أنه سند الخاوين من المتدينين !! المخدرين بخدر الدين كما يزعم الماديون !!، بل منطق يتحدى

أولئك الغافلين ، الذين آتخذوا من أنفسهم آلهة ، أو من غيرهم لعلهم ينصرون !؟؟

لعلهم ..!!؟ ولكنهم لا يعلمون ثم لا ينصرون

لماذا ؟؟

لانهم أى آلهتهم المزعومة –، **﴿ لا يَستطيعُون نَصْرَهُم وهُمْ لهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُون ﴾**

إن الذى عبد الحجر ، فأتا به تمثالاً ونصباً ، ألم ير زلزلة !؟ أو لم يعاين بأم العين تشققاً فى بنائه وتهدماً !؟ أو لم يقطع بيديه الحجر من الصخر !؟

وكم هو قياس الحجر إلى الجبل ؟

إن الجبل فى رسوخه وشموخه ، الذى (طوع) الكافرون حجراً فيه ، فصنعوه بأيديهم إلهاً لهم ، وظلوا عليه عاكفين ..

هذا الجبل ..، وغيره .. من قوى الطبيعة ، من الجند المحضرين ..!!

﴿ ويَسْألونَكَ عن الجبال فقُلْ يَنْسفها ربى نسفا . فيذرها قاعـا صفصفا . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾

أفبهذا الحديث تكفرون !؟؟

ما لكم لا تنطقون ؟؟

﴿ فلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم إنّا نَعْلَمُ ما يُسرُّونَ وما يُعلِنُون ﴾

كل قولهم فى التحريف على الله ، والافتراء والتكذيب ..، والسخرية بك والهزء منك ،

لا يحزنك ذلك ولا يؤذيك فى نفسك ، لأنا نعلم علم إحاطة بما يسرون فى ذواتهم وصدورهم من خبث وكراهية وسوء نية ، وكذلك ما يعلنون .

ولقد كان ﷺ لا يغضب ولا يحزن لنفسه ، أو لما يصيبه من أذى فى الله تعالى ، وهو القائل :

« إن لم يكُن بِكَ غَضَبٌ علىَّ فلا أُبالى !!! »

بل كان يغضب لله عز وجل ، وكفى بذلك رفعة إيمان وصدق رسالة وعظمة خلق ﷺ .

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإنسانُ أنَا خَلَقْناهُ من نُطْفةٍ فإذا هُوَ خصيمٌ مُبين . وضَرَبَ لنا مَثلاً ونَسيَ خَلْقه قال مَنْ يُحْيى العِظامَ وهى رميم . قُلْ يُحْييها الذى أنْشَأَها أوّل مرَّةٍ وهُوَ بِكُلّ خلْقٍ عليم . الذى جَعَلَ لكُم من الشَجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فإذا أَنْتُم مِنْه تُوقِدون﴾

روى « مجاهد » و « عكرمة » و « عروة بن الزبير » و « السدى » و « قتادة » قالوا :

« جاء أُبىُّ بنُ خَلَف – لَعَنَهُ الله – إلى رسول الله ﷺ وفى يَده عَظْم رميم ، وهَوُ يَفتّه ويَذْروهُ فى الهواء ، وهو يقول :

– « يامحمد » .. أتزعم أن الله يبعث هذا ؟

قال ﷺ :

– نعم .. يميتك الله تعالى ثم يبعثك .. ثم يحشرك إلى النار »

ونزلت هذه الآيات من آخر سورة (يٰس) .

وقال « ابن أبى حاتم » :

– حدثنا « على بن الحسين بن الجنيد » حدثنا « محمد بن العلاء » ؛ حدثنا « عثمان بن سعيد الزيات » عن « هشيم » عن « أبى بشر » عن « سعيد بن جبير » عن « ابن عباس » – رضى الله عنهما – قال :

« إن « العاص بن وائل » أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ :

– أيحيى الله هذا بعدما أَرَمّ !؟؟

فقال رسول الله ﷺ :

– نعم .. يميتك الله ، ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » .

قال – أى « ابن عباس » :

ونزلت الآيات من آخر (يس) .

يقول الإمام « ابن كثير » – رحمه الله – :

(سواء كانت هذه الآيات قد نزلت فى « أبى بن خلف » أو « العاص ابن وائل » ، أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث ؛ و (الألف) و (اللام) فى قوله تعالى : ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الإنسان**﴾ للجنس ، يعم كل منكر للبعث) .

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الإنسان أَنّا خَلَقناهُ من نُطْفةٍ ..** ﴾

من ماء حقير ضعيف مهين !! ﴿**أَلَمْ نَخْلُقْكم من ماءٍ مهين . فجعلناهُ فى قرارٍ مكين . إلى قَدَرٍ مَعْلُوم**﴾[1] ﴿ **إنّا خَلَقْنا الإنسانَ من نُطْفةٍ أَمْشاج** ﴾[2] .

لو أن هذا الإنسان المنكر للبعث قد تفكر فى مبدأ خلقه ، فى أى شئ ؟ وعلى أية كيفية ؟ لما وقف موقف المخاصم المتشنج ..

﴿ **فإذا هَوَ خصيمٌ مُبين ..** ﴾

روى الإمام « أحمد بن حنبل » – رضى الله عنه – فى مسنده قال :

« **إنَّ رسولَ الله ﷺ بَصَقَ يوماً فى كفِّهِ ، فَوَضَعَ عليها أصْبعه ، ثم قال رسول الله ﷺ :**

– قال الله تعالى : ابْن آدم ... أَنّى تُعْجزنى وقد خلقتك من مِثْل هذه ..!! حتى إذا سوَّيْتُكَ وعدلتك مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْك وللأَرْضِ منك

---

(١) سورة المرسلات الآيات ٢٠ : ٢٢ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٢ .

وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراق قلت : أتصدق ..، وأنى أوان الصدقة ؟ » .

يصف الله تعالى هذا الإنسان بأنه (خصيم) ..، ولم يقل بأنه : (خصم) ..، ولهذا التعبير دلالته ..، فهذا الإنسان ليس بالنسبة إلى خالقه خصماً ..، وحاشا لله جل جلاله أن تكون له خصومة مع أحد من خلقه ..، لكن الإنسان يخاصم .. ألا ترى أن هذا الإنسان الذى بارز ربه بالتنكر .. والكفر .. والمعصية .. يسعى فى الأرض .. يأكل ويشرب .. ويلبس ويبذخ .. ويكدس المال .. شأنه شأن أى إنسان آخر .. مؤمن طائع ..، وكلاهما يأتيه رزق الله تعالى : فأين هى الخصومة !؟

إنها من (الخصيم) فقط ..، من الذى بالغ فى الفحش والسوء ، والكفر والفجور ، فهو ﴿**مُبين**﴾ ...

ولو أن الدنيا ، بكل ما فيها .. تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء .. وصدق رسول الله ﷺ

﴿ **وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقه ..** ﴾

فى أقصر عبارة وأوجزها ، وأبلغها .. وأشدها إثارة .. وتنبيها للعقل والحس والجوارح ، يرد الله تعالى على هذا الخصيم المبين (مثله) وافتراءه ..، إذ يقول – عز من قائل : ﴿**وَنَسِيَ خَلْقه ..**﴾

وذلك قبل أن يفيض فى البيان .

إن هذا الخصيم المبين يعلم حق العلم مبدأ خلقه ، شأنه شأن كل بنى آدم ، لكنه نسى أو تناسى ذلك ، أو تعامى عنه ، بدافع من غرور شيطانه وهوى إبليسه .

وما أسخفه وأضعفه .. وأهونه ، حين يضرب (لنا) المثل !!

والأمثال .. إنما يضربها الله للناس ، ليقرب عليهم الأمور ، ويدنى إلى عقولهم ما غمض عليها وآستعصى ..

فإذا بهذا الخصيم المبين ، المهين الذى لا يكاد يبين ، هو الذى يضرب المثل ، ويحاول أن يقلب المقاييس ويعكس الموازين .

يقول الحق جل وعلا :

﴿ وَيضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَاسِ لَعَلَّهُم يَتَذكُرون ﴾[١]

ويقول سبحانه :

﴿ ويَضْرِبُ الله الْأَمثال للناسِ والله بكُلّ شيْءٍ عليم ﴾[٢]

وماذا قال الخصيم المبين فى مثله المفترى ؟

﴿ قال مَنْ يُحْيِى العِظامَ وهِيَ رميم ﴾

لقد لَجَّتْ فى صُدُور القرشيين وعقولهم دعوى البعث والنشور التى يطلقها محمد - ﷺ ، على حد زعمهم ، فيهز من الأعماق والقواعد معتقدهم فى الحياة ، لم يكتف بالسخرية من آلهتهم ، من أوثانهم ونصبهم ..، والقول بأنها حجارة صماء لا تنطق ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ..، حتى إنه اليوم يزداد نقضاً لدينهم الذى ورثوه عن الآباء والأجداد ..، فيقول بأنهم بعد موتهم وفنائهم سوف يبعثون من قبورهم ، أحياء !! ليحاسبوا ويجازوا .

لم يطيقوا سماع ذلك .. أو استمراره ..

فسعى كبيرهم « أُبى بن خَلَف » إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم بال قد رم ، ففته بيده .. ونفخه فى الهواء .. فإذا هو ذرات متطايرة وهباء منثور

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٥ .

(٢) سورة النور الآية ٣٥ .

وقال للنبى ﷺ : يا « محمد » أتزعم أن الله يبعث هذا !؟؟

﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ !؟

وبنفس الإيجاز البلاغى الذى رد به الله سبحانه وتعالى فى المرة الأولى ، بقوله : **﴿ وَنسىَ خَلْقه .. ﴾** رد هنا أيضا بقوله : **﴿ قُلْ يُحيِيها الذى أنْشأَها أوّل مَرَّة ﴾** ..، فصاحِبَ النَّشْأةِ الأولى لا تُعْجزه النشأة الثانية ، أو غيرها ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

﴿ وهُوَ بِكُلّ خلق عليم .. ﴾

﴿ ألَا يَعْلَم مَنْ خَلَق وهُو اللطيف الخبير .. ﴾[1] !!

وهذا الإحكام فى الرد يهدف إلى قطع دابر كل مراودة للعقل ، فاشلة أساساً ، فى الافتراء على علم الله تعالى وقدرته .

روى الإمام « أحمد بن جنبل » - رضى الله عنه - فى مسنده قال :

- قال « عقبة بن عمر » لـ« حُذيفة » - رضى الله عنهما -: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟

فقال :

- سمعته ﷺ يقول : « **إن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله ، إذا أنا مت فأجمعوا لى حطبا كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فأمتحشت ، فخذوها فدقوها فذروها فى اليم .**

ففعلوا .. فجمعه الله تعالى إليه ، ثم قال له :

- لم فعلت ذلك ؟

---

(١) سورة الملك الآية ١٤ .

قال : من خشيتك ..

فغفر الله – عز وجل – له »

فقال « عقبة بن عمرو » :

– وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك ، وكان (أى الرجل) نباشاً[1] .

وصدق الله العظيم – إذ يقول : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة . ولا أُقْسِمُ بالنَّفْس اللوّامة . أَيَحْسَبُ الإنسانُ أَنْ لن نَجْمَعَ عظامه . بلىٰ .. قادرين على أن نُسَوِّىَ بَنانَه . بَلْ يُريدُ الإنسانُ لِيفجر أمامه . يَسْأَلُ أَيّانَ يَوْم القيامة . فإذا برق الْبَصَرُ . وخَسَفَ الْقَمَر . وجُمِعَ الشَمْس والْقَمَر . يَقُول الإنسانُ يَوْمئِذٍ أين الْمَفَرّ ﴾ !!؟؟

﴿ الَّذى جَعَلَ لكُم من الشَّجَرِ الْأَخضر ناراً فإذا أَنْتُم منه توقدون ﴾

الشَجَر الْأَخضر ، الطرى الندى .. الذى تغذى بالماء حتى صار نضراً ذا ثمر وينع ؛.. فمن الذى جعله حطباً يابساً توقدون منه ناركم !؟

إنه صاحب الكون وخالقه ، الذى أودع فى كل مخلوق خاصيته وناموسه وقانونه ..

وهو الذى إن شاء أمضاه وإن شاء عطله ..، له الحكم وإليه ترجعون .

وهذه لفتة من البارى عز وجل تحاور عقل الإنسان ، بالمثل الحق ، والتفصيل ، لعله ينتهى عما سلف من خضوعه وتأثره بالشيطان ، فيهتدى إلى علم الرحمن ، ثم يستوى على الصراط ، من غير زيغ ولا ضلالة .

﴿ أَوَ لَيْس الذى خَلَق السماواتِ والْأَرْض بقادرٍ على أَنْ يَخْلُق مِثْلَهُم .. بلىٰ .. وهُوَ الخَلّاقُ العليم ﴾

(١) أى : ينبش على الموتى قبورهم . وقد روى هذا الحديث فى الصحيحين أيضاً بألفاظ أخرى .

ويرتفع الأمر بالمثل من خلق الإنسان من نطفة إلى خلق السماوات والأرض ..!!

وماذا يعرف الإنسان عن السماوات ؟

إن الرحلة إلى الفضاء فى عصرنا الحاضر ، فى القرن العشرين الذى يسجل الإنجازات العلمية بسرعة وتلاحق ..، هذه الرحلة ما تزال فى طور الطفولة فى المعرفة الكونية ، لا تتعدى الأبجدية ..

وذلك فضلاً عن الأرض التى يعيش الإنسان على سطحها ويباشر حياته فوقها ، ويتعاطى بكل أسباب وجوده معها ..، ما يزال قاصراً عن إدراك الكثير الكثير من أسرارها ..

فهلا يُطاطئ الإنسان رأسه أمام الله تعالى ، القادر العليم ، والخالق العظيم ، إجلالاً ومهابة ...، ولا يكون خصيماً مبيناً ..

فالذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ، بل أمثالهم أيضاً .. له الأمر من قبل ومن بعد ، وهو على كل شئ قدير .

﴿ إنّما أَمْرُهُ إذا أَراد شَيْئًا أَنْ يَقُولَ له كُنْ .. فَيَكُون ﴾

ويأتى دور الحسم بعد الدعوى والمثل ..

والحسم فى حرفين : الكاف والنون .. (كُنْ) ..

إنما يأمر – سبحانه – بالشئ أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار أو تأكيد .

روى الإمام « أحمد بن حنبل » – رضى الله عنه – فى مسنده عن « أبى ذر » رضى الله عنه – قال : ١

– [إن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله تعالى يقول : (يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد

أفعل ما أشاء ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له : كن ، فيكون) » .

وقال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول لهُ : كُنْ ، قَوْلةً ..، فَيكُون

﴿فَسُبْحانَ الَذى بِيَدِه مَلَكُوتُ كل شَئ وإليْه تُرْجَعُون ﴾

ملكوت كل شئ ..، الكون كله بما فيه وعليه ، والموت والحياة والنشور ، والدنيا والآخرة ..

وسبحان .. تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو المنعم العادل المتفضل .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

مسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
١	استهلال	٥
٢	المقدمة	٧
٣	قلب القرآن	٩
٤	ما جاء فى فضل (يٰس) من الحديث الشريف	١٢
٥	التفسير	١٤